كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

الصورة المعكوسة في البيان العربي
(دراسة بلاغية)

إعداد

د/ ياسر عبد الحميد حسين عرقوب
أستاذ البلاغة والنقد المساعد في جامعة الأزهر
(المشارك في جامعة تبوك)

(العدد الثامن والثلاثون الجزء الثاني٢٠١٩م)

الملخص باللغة العربية

يقوم هذا البحث على تتبع الصورة المعكوسة في البيان العربي؛ ليبرز جمالها، ويكشف عن دواعيها وبلاغتها من خلال ما ورد في الكلام الفصيح نثرا وشعرا؛ ليثبت أن اللسان العربي لا تتحكم فيه القواعد أو تقيده العادات، فهو قادر – في بعض الأحيان– على أن يخرج عن المألوف، وأن يمشي في الاتجاه المعاكس، ويبحر ضد التيار ليستخرج الدرر واللآلئ التي تزخر بها لغتنا العظيمة النابضة بالحياة القادرة على التلون والتشكل والمخالفة لتلائم المقامات على اختلافها، وذلك من خلال استعراض بعض الصور والأساليب التي استعملت في عكس معانيها الموضوعة لها، وبيان جمالها، وما تحدثه للمتلقي من إثارة ومتعة ومفاجأة معجبة، فضلا عن ملاءمتها للمقام الذي وردت فيه.

وقد تم تصنيف تلك الصور حسب اللون البلاغي الذي اشتملت عليه، مع إبراز جمالها وروعتها؛ ليدرك القارئ الكريم جمال هذه اللغة وحيويتها ومرونتها لتطابق المقامات المختلفة؛ فيزداد فخرا بلغته واعتزازا بعربيته.

Research Summary

This research is based on tracking the image reflected in the Arab statement; to highlight its beauty, and reveal its reasons and eloquence through what is stated in eloquent prose and poetry; to prove that the Arab tongue is not controlled by the rules or bound by habits, it is able - sometimes - to come out To walk in the opposite direction, and sail against the current to extract the pearls and pearls that abound in our great vibrant language capable of coloring and morphology and violating to suit the various shrines, through the review of some of the images and methods that were used to reverse the meanings set for them, and show their beauty, And what you talk to the recipient Of excitement and fun and surprise impressed, as well as their suitability to serve as you received it.

These images have been classified according to the rhetorical color, which included, highlighting the beauty and magnificence;

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه، وسار على نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد ،،،

فيلتزم المتكلمون غالبا أساليب رتيبة، وصورا معهودة درجوا عليها في كلامهم؛ فأَنِسُوها حتى صارت كأنها مطبوعة في أذهانهم، محفورة في عقولهم، فإذا أرادوا التعبير عن معنى من المعاني كانت هذه الأساليب وتلك الصور حاضرة في عقولهم، وما عليهم إلا أن يستدعوها من أرشيف ذاكرتهم، ويلبسوها تلك المعاني، كتشبيه الرجل الشجاع بالأسد، والفتاة الجميلة بالبدر وغيرها.

لكن الأدباء والمبدعين تتسع خيالاتهم عند إرادة التعبير عن معانيهم فلا يقتنعون- في بعض الأحيان- بما درج عليه معظمهم، وإنما يخالفون ذلك إلى السير في الاتجاه المعاكس، والخروج عن المألوف، ونفض غبار العادة وخلع عباءتها، معتمدين على فطنة السامع وذكائه؛ فيعرجون به إلى عوالم مجهولة وصور غير معهودة؛ مما يحقق له الإقناع والإمتاع؛ فطبيعة النفس البشرية أن تتطلع إلى ما تجهله وتحاول اكتشاف ما خفي عليها؛ وهذا هو سر التقدم والإبداع في شتى المجالات.

وهذه الأساليب تتطلب متكلماً بليغًا، ومخاطباً ذا ذوق رفيع وحس مرهف وعقل واع بجمال هذه الأساليب.

وعلم البلاغة يهدف- كما هو معروف- إلى إيصال المعنى كاملا إلى المتلقي كما هو في نفس المتكلم مع مراعاة المطابقة لمقتضى الحال، وفي بعض الأحيان يرى المتكلمون أن الأساليب والصور المعهودة لا تستطيع الوفاء بما يجيش

بخواطرهم وما تمتلئ به نفوسهم؛ فيلجؤون إلى عكس هذه الصورة المعهودة علها تفي بما تنطوي عليه نفوسهم.

والحقيقة أن هذه الصور قد استوقفت النقاد واسترعت انتباههم؛ فوقفوا أمامها يتأمَّلونها ويعللونها بتعليلات مختلفة، كما أن هذه الصور جاءت متناثرة في كتب البلاغيين، ولم يفردوا لها بابا يخصها اللهم إلا بابا موجزا لم يستوعب معظم الصور التي جاء الكلام فيها معكوسا، وهو باب (القلب)، واختلفوا حوله، هل يمكن عدُّه من البلاغة أم لا؟ كما سيتضح في التمهيد- إن شاء الله تعالى-؛ مما دعاني إلى جمع هذه الصور ودراستها، وعرض كلام النقاد حولها؛ ليتبين للقارئ الكريم جمال هذه الصور ومدى ملاءمتها لمقتضى الحال؛ وليدرك أيضا عظمة هذه اللغة ومرونتها وقدرتها على التشكل والمطاوعة حين تجد خبيرا متمرسا على أسلوب القول وتطويعه في شتي الاتجاهات- ولو كان عكس الاتجاه- ليتطابق الكلام مع مقتضيات الأحوال المختلفة؛ فجاء هذا البحث تحت عنوان: "الصورة المعكوسة في البيان العربي- دراسة بلاغية".

ومما يجب التنبيه إليه أن ليس القصد من الصورة هنا ما يختص بعلم البيان من تشبيه ومجاز وكناية فحسب؛ وإنما المقصود صورة المعنى فتشمل بذلك كل علوم البلاغة مما جاءت فيه الصورة معكوسة.

وقد اقتضت طبيعة الدراسة الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي، فقمت بجمع الصور التي جاءت على عكس المعهود في الكلام - قدر الطاقة-، ثم أضع كل صورة تحت بابها من البلاغة، ثم أقوم بتحليل هذه الصور تحليلا بلاغيا يكشف روعتها وأسرار جمالها، وبيان مدى ملاءمتها للمقام الذي وردت فيه، وكلام البلاغيين حولها.

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وتمهيد وخمسة مباحث وخاتمة على النحو الآتي:

المقدمة: وتضمنت الحديث عن أهمية الموضوع، وبواعث اختياره، ومنهج السير في دراسته.

التمهيد: وجاء حول المقصود بالصورة المعكوسة.

المبحث الأول: الصورة المعكوسة في التشبيه.

المبحث الثاني: الصورة المعكوسة في المجاز.

المبحث الثالث: الصورة المعكوسة في التقديم والتأخير.

المبحث الرابع: الصورة المعكوسة في زمن الأفعال.

المبحث الخامس: الصورة المعكوسة فيما جرت به العادة.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة.

والله من وراء القصد، وهو حسبي ونعم الوكيل،،،

تمهيد

المقصود بالصورة المعكوسة :

درج العرب في كلامهم على أنماط معينة من الكلام، وجعلوا لكل معنى أرادوا التعبير عنه صورة كلامية معهودة يعرفونه بها غالباً، ولا تشكل عليهم؛ لكثرة دورانها في كلامهم حتى أصبحت أصلا في معظم معانيهم.

لكن هناك بعض الصور في الكلام البليغ تشذ عن هذا الأصل، وتأتي على غير المعهود، مخالفة بذلك ما تعارفوا عليه، وهذه الصور كثيرة في الكلام وتدرس تحت مسميات كثيرة وتقسيمات متعددة، كالعدول والمجاز والخروج على خلاف مقتضى الظاهر وغيرها.

وصور العدول في البيان العربي كثيرة، لكن هذه الدراسة تختص بما كان المعني فيه مستعملا في ضده، لكني أشير هنا إلى أن لفظ الضد الذي أقصده في هذه الدراسة أكثر اتساعا وشمولا من معناه الأصلي المعروف له بأنه خلاف الشيء، فالضدية هنا تتحقق بكل كلام استعمل في ضد معناه حقيقة، أو خالف العادة والمشهور المستعمل فيه، أو خالف المتبادر إلى الذهن عند ذكره[1]؛ ولذلك فهذه الدراسة ستقتصر على بعض صور المخالفة، وهي ما تتحقق فيه الضدية فقط بمعناها المذكور آنفا دون غيرها من بقية صور العدول.

---

(١) مخالفة المعنى المتبادر إلى الذهن كما في قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧]، والأصل: ففريقا كذبتم وفريقا قتلتم كما هو متبادر إلى الذهن عند ذكر الجملة الأولى ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾، لكن الجملة الثانية ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ خالفت المتبادر إلى الذهن، بالعدول عن الماضي إلى المضارع، وسيتضح ذلك في موضعه من هذه الدراسة إن شاء الله تعالى.

ومعلوم- كما ذكرت في المقدمة- أن ليس القصد من الصورة هنا ما يختص بعلم البيان من تشبيه ومجاز وكناية؛ وإنما المقصود صورة المعنى فيشمل الكلام كل علوم البلاغة مما جاء فيه المعنى معكوسا، وعلى هذا يمكن ضبط المقصود بالصورة المعكوسة هنا بأنها: كل كلام بليغ استُعمل في خلاف المعنى الأصلي الموضوع له، أو المعنى المشهور المتعارف عليه المعتاد فيه، أو خالف المتبادر إلى الذهن عند ذكره. فكل كلام ينضوي تحت هذا التعريف مراد في هذه الدراسة.

وقد درس البلاغيون بعض هذه الصور المعكوسة دراسة موجزة تحت مسمى(القلب)، وعرفوه بأنه: " هو أن يُجعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر والآخر مكانه"(١)، وهو عندهم يختلف عن العكس والتبديل في علم البديع الذي يعني: "أن يقدم أول الكلام جزء ثم يؤخر، أي يؤخر الجزء المقدم ويقدم الجزء المؤخر لنكتة... وذلك نحو: عادات السادات سادات العادات"(٢).

وعدّ السكاكي والخطيب القزويني القلب من صور خلاف مقتضى الظاهر، وأبانوا عن منزلته في الكلام، يقول السكاكي: " وإن هذا النمط مسمى فيما بيننا بالقلب وهي شعبة من الإخراج لا على مقتضى الظاهر ولها شيوع في التراكيب، وهي مما يورث الكلام ملاحة، ولا يشجع عليها إلا كمال البلاغة تأتي في الكلام وفي الأشعار، وفي التنزيل، يقولون عرضت الناقة على الحوض يريدون عرضت

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح للسبكي، ت/د/ عبد الحميد هنداوي، (١/ ٢٨٨)، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م. وينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم (٣/ ١٢٨)، الهيئة المصرية للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م. - والإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، ت/ د/ محمد عبد المنعم خفاجي (٢/ ٩٧)، دار الجيل، بيروت، ط٣.

(٢) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (٢/ ٢٤٠).

الحوض على الناقة. وقال القطامي كما طينت بالفدن السياعا أراد كما طينت الفدن بالسياع، وقال الشماخ: كما عصب العلباء بالعود... وقال رؤبة:

وَبَلَـــــدٍ عَامِيَـــــةٍ أَعْمـــــاؤُهُ كَـــأَنَّ لَـــوْنَ أَرضِـــهِ سَـــماؤُهُ[1]

أراد كأن لون سمائه من غبرتها لون أرضه، وقال الآخر يمشي فيقعس أو يكب فيعثر أراد يعثر فيكب وفي التنزيل " وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا " أي جاءها بأسنا فأهلكناها على أحد الوجهين وفيه " اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعونَ " على ما يحمل من ألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون، ثم تول عنهم وفيه " ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى " يحمل على تدلى فدنا"[2]، وأشاروا في ثنايا أحاديثهم إلى أساليب أخرى لم ترد في باب القلب الذي ذكروه؛ فحاولت هذه الدراسة أن تجمع القدر الأكبر من الصور المعكوسة في الكلام مما ذكره السابقون في باب القلب، وما أشاروا إليه في مواضع متفرقة؛ ولعل هذا هو السبب في تسمية الدراسة بالصورة المعكوسة؛ لتشمل ما ذكره البلاغيون تحت مسمى القلب وما ذكروه تحت مسميات أخرى.

واختلف البلاغيون حول القلب وعدِّه ضمن الألوان البلاغية التي تسهم في بلاغة الكلام، فمنهم من قبِله في الكلام مطلقا، ومنهم من ردَّه؛ ولعل حكمهم بالرد هذا مبني على القلب الذي يحدث في الحروف فقط التي تقرأ من أولها كما تقرأ من آخرها، دون النظر إلى بقية الأنواع الأخرى كالبيت الذي يمثلون به للقلب:

مودتُـــهُ تـــدومُ لكُـــلِّ هَـــوْلٍ وهـــلْ كُـــلٌّ مَوَدَّتـــه تـــدومُ

(١) ديوان رؤبة بن العجاج، تصحيح وترتيب وليم بن الورد: ص٣، دار ابن قتيبة بالكويت.

(٢) مفتاح العلوم للسكاكي، ت/ نعيم زرزور (ص: ٢١١)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

ولذلك حكموا عليه بالإغراق والإلغاز، ومن كلامهم في تعريفه ومنزلته: "القلب، وهو أن يكون الكلام يصلح ابتداء قراءته من أوله وآخره؛ نحو دعد، أو تعكس كلماته، فتقدم المؤخر منها وتؤخر المقدم.

هذا نوع لم يكن العرب يعتدُّون أو يحتفون به، وإنما أخذ به بعض علماء البلاغة المتأخرين الذين حرصوا على علم البديع وغيره، ومما يمثلون به في ذلك قوله: {كُلٌّ فِي فَلَكٍ} [الأنبياء: ٣٣] تقرأ من أولها كما تقرأ من آخرها بالقلب ولا تختلف، وهذا من الإغراق في التلغيز، ولا يمكن أن يكون من مرادات الله، ولا هو مما يُعنى به أهل البلاغة الحقة، ولا هو مما يؤثر في المعنى، لكن هذا الموضوع مما اعتنى به بعض الشعراء والمعتنون بالبلاغة من المتأخرين حيث كانوا يُجْهِدون أذهانهم ليخرجوا مثل هذه الأبيات أو الخطب الطويلة التي تقرأ من الأعلى إلى الأسفل وتقرأ من الأسفل إلى الأعلى ولا تختلف"(١).

والحق" أنه إن تضمّن اعتبارا لطيفا، قُبِل.. وإلا ردّ"(٢).

يقول الزركشي– رحمه الله– : "وفي كونه من أساليب البلاغة خلاف فأنكره جماعة منهم حازم في كتاب: "منهاج البلغاء" وقال: إنه مما يجب أن ينزه كتاب الله عنه لأن العرب إن صدر ذلك منهم فبقصد العبث أو التهكم أو المحاكاة أو حال اضطرار والله منزه عن ذلك، وقبله جماعة مطلقا بشرط عدم اللبس كما قاله المبرد في كتاب: "ما اتفق لفظه واختلف معناه".

---

(١) شرح مقدمة التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، تأليف: د مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، (صـ ٢٧٠)نشر: دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٣١ هـ. .

(٢) ينظر: الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم للعصام، ت/ د/ عبد الحميد هنداوي، (١/ ٣٦)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (٢٨٩/١).

وفصل آخرون بين أن يتضمن اعتبارا لطيفا فبليغ، وإلا فلا، ولهذا قال ابن الضائع: يجوز القلب على التأويل ثم قد يقرب التأويل فيصح في فصيح الكلام وقد يبعد فيختص بالشعر "[١].

والحقيقة أن مجيء الصورة معكوسة في الكلام لا يأتي عفويا، وإنما يقصده المتكلم قصدا، وهو من أرقى فنون القول، وأكثرها عمقا؛ فهو يحتاج متكلما بليغا، ومخاطبا واعيا ذواقة يستشعر نبض الكلام ويتذوقه، فأي مخالفة في الكلام البليغ تدل- كما ذكر أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى- على" أن الحديث بلغ مقطعًا من المعنى يجب على السامع أن يلتفت إليه، وهذه قاعدة عامة في كل مخالفة".[٢]

ويقول ابن الأثير: ""واعلم أيها المتوشّح لمعرفة علم البيان، أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخّاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطلع على أسرارهما، وفتش عن دفائنهما، ولا تجد ذلك في كل كلام؛ فإنه من أشكل ضروب علم البيان، وأدقّها فهما، وأغمضها طريقا"[٣]، فالذي ينكره إنما ينكر صورة رائعة من صور التفنن في الكلام تشتمل على الإبداع والإمتاع.

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم (٣/ ٢٨٨) ، نشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ط١، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م.

(٢) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد أبو موسى،(ص: ٢٦٣)، مكتبة وهبة، ط٧.

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ت/ محيي الدين عبد الحميد (٢/ ١٢)، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ.

المبحث الأول
الصورة المعكوسة في التشبيه

من أبرز الصور المعكوسة وأوضحها في الكلام عامة هو ما نراه في التشبيه المقلوب، حيث يقلب المتكلم الصورة التشبيهية المعهودة لدى المتلقين؛ لأن الصورة المعكوسة- في نظره- هي القادرة على التعبير عن المعنى الذي تنطوي عليه نفسه.

ويحسن قبل استعراض شواهد هذا النوع أن أبين رؤية البلاغيين للتشبيه المقلوب، وإمكانية دخول العكس فيه من عدمه على النحو الآتي:

يرى معظم البلاغيين أن العكس مطرد في كل تشبيه قلبت فيه الصورة التشبيهية، وهذا ظاهر من خلال شرحهم للشواهد المشتملة على هذه الصورة كما سيتضح- إن شاء الله تعالى- في عرضها، مع اتفاقهم على الغرض منه وحصره في إفادة المبالغة.

وقد ذكروا هذا النوع تحت مسميات مختلفة، فسمَّاه ابن الأثير: " الطرد والعكس"، وأرجع الغرض منه إلى المبالغة في المعنى فقال: "واعلم أن من التشبيه ضربًا يسمى "الطرد والعكس"، وهو أن يجعل المشبه به مشبهًا والمشبه مشبهًا به... ولا تجد شيئًا من ذلك إلا والغرض به المبالغة"(١).

وسمّاه ابن جنّي: غلبة الفروع على الأصول، وجعله من قبيل تشبيه الحقيقة بالمجاز وقال مبينا فضله وشيوعه في الكلام: "هذا فصل من فصول العربية

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ت/ الحوفي (٢/ ١٢٥).

طريف، تجده في معاني العرب، كما تجده في معاني الإعراب ، ولا تكاد تجد شيئًا من ذلك إلا والغرض فيه المبالغة"(١).

وسماه العلوي التشبيه المنعكس وشرحه قائلا: " اعلم أن هذا النوع من التشبيه، يرد على العكس والندور، وبابه الواسع هو الاطراد كما أشرنا إليه، وإنما لقب بالمنعكس لما كان جاريا على خلاف العادة والإلف في مجارى التشبيه، وقد يقال له غلبة الفروع على الأصول، وكل هذه الألقاب دالة على خروجه عن القياس المطرد، والمعية المستمرة، وله موقع عظيم في إفادة البلاغة، والشرط في استعماله أن لا يرد إلا فيما كان متعارفا، حتى تظهر فيه صورة الانعكاس، كما سنقرره في أمثلته، لأنه لو ورد في غير المتعارف لكان قبيحا، لأن مطرد العادة في البلاغة على تشبيه الأدنى بالأعلى، فإذا جاء على خلاف ذلك فهو معكوس"(٢)، وأرجع الغرض منه إلى المبالغة.

وسماه الإمام عبد القاهر جعل الفرع أصلا والأصل فرعا، وعرض له أمثلة كثيرة، وبين طريقة العكس فيها، **لكنه خالف معظم البلاغيين فقسّم الغرض منه إلى المبالغة وإلى مجرد الجمع بين الشيئين، وخص العكس بالقسم الأخير فقال: " وجملةُ القول أنه متى لم يُقصَد ضَرْبٌ من المبالغة في إثبات الصفة للشيء، والقصدِ إلى إيهامٍ في الناقص أنه كالزائد، واقتُصِر على الجمع بين الشيئين في مطلق الصورة والشكل واللون، أو جمعِ وصفين على وجهٍ يوجد في الفَرْع على حدّه أو قريبٍ منه في**

(١) ينظر: الخصائص لابن جني (١/ ٣٠١)، نشر/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤.

(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (١/ ١٥٨)، نشر/ المكتبة العنصرية – بيروت،ط١، ١٤٢٣ هـ .

الأصل، فإنّ العكسَ يستقيم في التشبيه، ومتى أُرِيد شيء من ذلك لم يستقم "[1]. لكنه رجع وفتح الباب للتخييل فقال: " وقد يَقصِدُ الشاعر، على عادة التخييل، أنْ يُوهِم في الشيء هو قاصرٌ عن نظيره في الصفة أنه زائد عليه في استحقاقها، واستيجابِ أن يُجعَل أصلاً فيها، فيصحُّ على موجَب دعواه وسَرَفه أن يجعل الفرعَ أصلاً، وإن كُنّا إذا رجعنا إلى التحقيق، لم نجد الأمرَ يستقيم على ظاهر ما يضع اللفظ عليه"[2]، وبهذا وسَّع الإمام عبد القاهر دائرة العكس في التشبيه المقلوب، مما يتيح دخول معظم شواهده ضمن الصورة المعكوسة؛ إذ معظمها قائم على الادعاء والتخيل.

وتبع الإمامُ الرازي الإمامَ عبد القاهر في التقسيم السابق، واختصاص الصورة المعكوسة في التشبيه المقلوب بما كان الغرض منه مجرد الجمع بين الشيئين لكنه لم يفتح الباب للتخييل كما فعل الإمام عبد القاهر فقال: "إن كان الغرض من التشبيه إلحاق الناقص بالزائد مبالغة في إثبات الحكم للناقص فهذا يمتنع عكسه، وهو كما إذا شبهت شيئا أسود بما هو الأصل في شدة السواد كخافية الغراب والقار امتنع فيه العكس؛ لأن تنزيل الزائد منزلة الناقص يضاد المبالغة في الإثبات، وأما إن كان المقصود هو الجمع بين الشيئين في مطلق الصورة أو الشكل أو اللون فالعكس مستقيم فيه، وهو كتشبيه الصبح بغرة الفرس لا لأجل المبالغة في

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت/ عبد الحميد هنداوي، صـ٣٢٣، وما بعدها، نشر/ دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٢) السابق: الصفحة.

الضياء بل لأجل وقوع منير في مظلم، وحصول بياض في سواد، مع كون البياض قليلا بالإضافة إلى السواد"[1]، فكل تشبيه معكوس مقلوب عنده وليس العكس.

وبهذا أخرج الإمام الرازي كثيرا من شواهد التشبيه المقلوب بعيدا عن الصورة المعكوسة.

ويمكن أن يرد عليه بأن مجرد الجمع بين الشيئين في مطلق الصورة أو الشكل أو اللون لا ينهض غرضا وحيدا لقلب التشبيه؛ إذ لو أبقيناه على أصله لظل الجمع بين الشيئين قائما دون الحاجة إلى قلب التشبيه.

كما أن تعليله إخراج التشبيه المقلوب بغرض المبالغة من دائرة العكس بعلة أن تنزيل الزائد منزلة الناقص يضاد المبالغة في الإثبات مردود أيضا؛ لأن التشبيه المقلوب ينزل فيه الناقص منزلة الزائد وليس العكس كما ذكر الإمام الرازي.

وتأسيسًا على ذلك فإني سأعتمد قول جمهور البلاغيين في عدِّ شواهد التشبيه المقلوب ضمن الصورة المعكوسة؛ لأن قلب أجزاء الصورة التشبيهية يتبعه عكس في المعنى يُدخله ضمن حدود الصورة المعكوسة التي تم ضبط المقصود بها في التمهيد لهذه الدراسة.

وقد جاءت أمثلة كثيرة للصورة المعكوسة من خلال التشبيه المقلوب في القرآن الكريم والسنة المطهرة وفي أشعار العرب، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

(١) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي، ت/ نصر الله حاجي مفتي أوغلي، صـ ١٢٧، نشر/ دار صادر – بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ تشبيه مقلوب، حيث ادَّعى آكلو الربا أن الربا أدخل في الحِلِّ من البيع؛ فعمدوا إلى عكس الصورة التشبيهية؛ لأن غرضهم الربح فقط، وهو في الربا مضمون عنه في البيع فيكون أحق بالحل عندهم(١).

وذكر الزمخشري- رحمه الله- أن هذا التشبيه: "جيء به على طريق المبالغة، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حل الربا أنهم جعلوه أصلا وقانونا في الحل حتى شبهوا به البيع"(٢).

ويقول البيضاوي- رحمه الله-: "أي ذلك العقاب بسبب أنهم نظموا الربا والبيع في سلك واحد لإفضائهما إلى الربح فاستحلوه استحلاله. وكان الأصل إنما الربا مثل البيع ولكن عكس للمبالغة، كأنهم جعلوا الربا أصلاً وقاسوا به البيع"(٣).

وعكس الصورة هنا ينبئ عما بداخلهم من تصميم على التعامل بالربا، وعزم على عدم الإقلاع عنه بعدما حرَّمه الله- تعالى-؛ مما يدل على شدة خبثهم.

وقد أسند هذا القول لمجموعهم مؤكدا بـ" أن" ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟﴾ للإشارة إلى اجتماعهم على ذلك، واتفاقهم على عدم الإقلاع عنه.

---

(١) ينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشمي، ت/ د/ يوسف الصميلي ، (ص: ٢٤٠)، نشر/ المكتبة العصرية- بيروت.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري (١/ ٣٢١)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، ت/ محمد عبد الرحمن المرعشلي، (١/ ١٦٢)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

كما أكدوا قولهم أيضا بالقصر الذي يفيد تخصيص البيع لا غيره بالمشابهة بالربا. وهو قصر إضافي للقلب للرد على من زعم تخالف حكمهما فحرم الربا وأحل البيع.

ومما يدل على شدة خبثهم، وسوء قصدهم استعمالهم القصر عن طريق" إنما" وهي أكثر ما تستعمل في الأمور الواضحة المعلومة؛ ليخيِّلوا أحقية الربا للحِلِّ عنه في البيع، وأن ادعاءهم هذا معروف لا ينكره أحد.

والحقيقة أن قولهم هذا كان سببا في تصويرهم في صورة مخزية منفرة؛ حيث أخبرت الآيات أنهم يكونون يوم القيامة كالمجانين، وتشبيههم بمن أصابه مسٌّ من الشيطان، وفي الآخرة يكونون من أهل الجحيم.

يقول الطبري– رحمه الله–: "هذا الذي ذكرنا أنه يصيبهم يوم القيامة من قُبْح حالهم، ووَحشة قيامهم من قبورهم، وسوء ما حلّ بهم، من أجل أنهم كانوا في الدنيا يكذبون ويفترون ويقولون: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ﴾ الذي أحله الله لعباده ﴿مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ وذلك أن الذين كانوا يأكلون من الرّبا من أهل الجاهلية، كان إذا حلّ مالُ أحدهم على غريمه، يقول الغَريم لغريم الحق: "زدني في الأجل وأزيدك في مالك". فكان يقال لهما إذا فعلا ذلك: "هذا ربًا لا يحل". فإذا قيل لهما ذلك قالا: "سواء علينا زدنا في أول البيع، أو عند مَحِلّ المال"! فكذَّبهم الله في قيلهم فقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾."[1].

(١) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، ت/ أحمد محمد شاكر، (٦/ ١٢،١٣)، نشر/ مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

والصورة المعكوسة هنا تتناسب مع ما عليه حالهم؛ حيث إن حالهم وما هم عليه من تعامل بالربا بعد الأمر الإلهي بتركه يخالف الطبائع السوية التي تمتثل لمراد الله- تعالى- منها بمجرد الأمر به؛ فاقتضى ذلك أن تأتي الصورة التشبيهية معكوسة تناغيا مع حالهم المعكوس، فإنهم ما كان لهم أن يعترضوا على أحكام ربهم، وهو العليم بكل أمورهم، الخبير بالصالح لهم، وكان ينبغي أن يتلقوا أوامره ونواهيه بالإذعان الكامل، ولكنهم اعترضوا وجادلوا؛ فجاء "النص القرآني هنا يوحي إلى التخبط حتى في القضية التي يريدون أن يحتجوا بها. كأنهم قالوا: ما دمت تريد أن تحرم الربا، فالبيع مثل الربا، وعليك تحريم البيع أيضا.

وكان القياس أن يقولوا: «إنما الربا مثل البيع» ، لكن الحق سبحانه أراد أن يوضح لنا تخبطهم فجاء على لسانهم: إنما البيع مثل الربا فإن كنتم قد حرمتم الربا فحرموا البيع، وإن كنتم قد حللتم البيع فحللوا الربا. إنهم يريدون قياسا إما بالطرد، وإما بالعكس"(١).

ونظير هذا: قوله - تعالى- مخبرا عن عبدة الأصنام الذين جعلوها آلهة، والرد عليهم: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النحل: ١٧ – ٢٢].

فقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ ﴾ من التشبيه المقلوب؛ حيث إن مقتضى الظاهر العكس؛ لأن الخطاب للذين يعبدون الأصنام ويسمونها آلهة تشبيها لها

(١) تفسير الشعراوي، (٢/ ١١٩٣)، نشر/ مطابع أخبار اليوم.

بالله- تعالى-، فجعلوا غير الخالق مثل الخالق، وعكسوا الصورة التشبيهية للمبالغة في عبادتها حتى صارت عندهم أصلا في العبادة، والخالق- سبحانه- فرعا.

وهذا العكس ينبئ عن شدة كفرهم، وتمسكهم بعبادة الأصنام، وقناعتهم بألوهيتها مما يدل على شدة ضلالهم، ومبالغتهم في عبادتها؛ مما يشير إلى ضعف عقولهم وقلة تمييزهم.

يقول البيضاوي- رحمه الله- : "وكان حق الكلام أفمن لا يخلق كمن يخلق، لكنه عكس تنبيهاً على أنهم بالإشراك بالله- سبحانه وتعالى- جعلوه من جنس المخلوقات العجزة شبيهاً بها"(١).

وفصَّل الإمام الطيبي في حاشيته فقال: "إن المشركين ما شبهوا الخالق بالأصنام حتى ينكر عليهم بقوله: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾، وإنما شبهوا الأصنام بالخالق، فكان حق الإلزام أن يُقال: أفمن لا يخلق كمن يخلق؟ ووجه الجواب: أن وجه التشبيه إذا قوي بين الطرفين، أعني المشبه والمشبه به، يرجع التشبيه إلى التشابه، فيُقال: وجه الخليفة كالقمر، والقمرُ كوجه الخليفة، والمشركون لما تعاملوا مع الأصنام بما ينبغي أن يُعامل به الإله الحق من تسميتها بالآلهة، والتوجه بالعبادة إليها، فلم يبق عندهم فرق بينها وبينه، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، حصل التشابه، فقيل ما قيل، أو ذهب إلى التعكيس: لأن من حق المشبه أن

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، (٣/ ٢٢٣).

يكون أحط من المشبه به فيما وقع فيه الشبه، فإذا قُلبَ انعكس مزيداً للتقريع والتجهيل"[١].

وعكس الصورة هنا متناسب مع انعكاس حالهم، وشدة ضلالهم حيث تركوا المستحق للعبادة- سبحانه- وعبدوا من لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، " فهؤلاء الذين نزل فيهم الحديث تعاملوا مع الأصنام وكأنها الله؛ وتوهَّموا أن الله مخلوق مثل تلك الأصنام؛ ولذلك جاء القول الذي يناسب هذا التصوُّر.

والحق- سبحانه- يريد أنْ يبطل هذا التصوُّر من الأساس؛ فأوضح أن مَنْ تعبدونهم هم أصنام من الحجارة وهي مادة ولها صورة، وأنتم صنعتموها على حَسْب تصوُّركم وقدراتكم.

وفي هذه الحالة يكون المعبود أقلَّ درجة من العابد وأدنى منه؛ فضلاً عن أن تلك الأصنام لا تملك لِمَنْ يعبدها ضراً ولا نفعا"[٢].

وألمح في الآية الكريمة عكسا من وجه آخر أيضا من خلال التعبير بـ (مَن) التي تدل على العقلاء ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ على الرأي القائل بأن المقصود الأصنام وهي لا تعقل؛ مجاراة لعقولهم الضالة حيث إن في عبادتهم لها إنزال لها منزلة من يعقل؛ فعكس التعبير للمبالغة في شدة ضلالهم، وقد يكون ذلك للمشاكلة.

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) ت/ إياد محمد الغوج، د. جميل بني عطا،(٩/ ٩٧)، نشر/ جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣ م.

(٢) تفسير الشعراوي (١٣/ ٧٨٥٥).

أما على الرأي القائل بأن الكلام على العموم، وأن المقصود كل ما يُعبد من دون الله- تعالى- فلا عكس، وإنما هو تغليب للعقلاء على غيرهم[1].

وإيراد الصورة المعكوسة هنا في سياق الاستفهام المتطلب جوابا تأكيد للمعنى المراد، وإشراك للمخاطب في الوصول إلى الحقيقة، وهي عدم المساواة بين من يخلق ومن لا يخلق،؛ والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ.

ومن هذا النوع أيضا:

قوله تعالى حكاية عن أم مريم- عليها السلام-: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٦].

فقولها: ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾ معكوس؛ لأن غرضها أن تبين نقصان الأنثى بالنسبة للذكر بعدما كانت تتوقع أن مولودها سيكون ذكرا ونذرته لله- تعالى- لكنها فوجئت بأنه أنثى، فكان القياس أن تقول:(وليست الأنثى كالذكر).

يقول القاسمي: " قياس كونه من قولها أن يكون (وليست الأنثى كالذكر) فإن مقصودها تنقيص الأنثى بالنسبة إلى الذكر. والعادة في مثله أن ينفي عن الناقص شبهة بالكامل، لا العكس" [2].

---

(١) ينظر: زهرة التفاسير لأبي زهرة (٨/ ٤١٤٩)، نشر/ دار الفكر العربي، وإعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش، نشر/ دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، (دار اليمامة – دمشق – بيروت) ، (دار ابن كثير – دمشق – بيروت) ط٤ ، ١٤١٥ هـ (٥/ ٢٨٢).

(٢) محاسن التأويل للقاسمي، ت/ محمد باسل عيون السود، (٢/ ٣١١)، نشر/ دار الكتب العلمية، بيروت،ط،١ ١٤١٨ هـ.

وذكر الطاهر بن عاشور أنه: "قدم الذكر هنا لأنه هو المرجو المأمول فهو أسبق إلى لفظ المتكلم"(١).

والصورة المعكوسة هنا تنبئ عن شدة حزنها، وفرط تحسرها لحدوث خلاف ما كانت تتوقع، وتأكيد اعتذارها" ببيان أن الذكر ليس كالأنثى في الفضيلة والمزية، وصلاحية خدمة المتعبدات، فإنهنّ بمعزل عن ذلك" (٢).

وهذا العكس يتناغى مع انعكاس متوقعها، وتخلُّف مأمولها في أن يكون المولود ذكرا.

ومما ورد من ذلك في البيان النبوي:

قوله- ﷺ- فيما أخرجه الإمام أحمد في مسنده: "عن عبد الله بن مسعود قال: خَطَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خَطًّا بيده، ثم قال: "هذا سبيل الله مستقيماً"، قال: ثم خطّ عن يمينه وشماله، ثم قال: "هذه السُّبُل، وليَس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه"، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣])(٣).

قوله: (هذا سبيل الله مستقيماً) تشبيه مقلوب عكست فيه الصورة التشبيهية، والتقدير: سبيل الله كهذا الخط في الاستقامة وعدم الزيغ والاعوجاج يمينا أو شمالا.

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، (٣/ ٢٣٤ الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤م).
(٢) السابق: الصفحة.
(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت/ شاكر (٤/ ٢٥٧)،نشر/ دار الحديث- القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

ذكر الإمام الهروي- رحمه الله- أن: "التقدير: هذا مثل سبيل الله أو هذا سبيل الله مثلا، وقيل: تشبيه بليغ معكوس أي سبيل الله الذي هو عليه وأصحابه مثل الخط في كونه على غاية الاستقامة"(١).

ويرجح الباحث أن يكون هذا من التشبيه المعكوس؛ لأن المقام للتعليم وإفهام الصحابة استقامة سبيل الله- تعالى- فيمثِّلها النبي- ﷺ- بالخط المستقيم المحسوس أمام نواظرهم؛ فالأوْلى أن يكون الخط الذي خطه- صلى الله عليه وسلم- هو المشبه به.

ولعل إيراد النبيﷺ للصورة معكوسة هنا تأدب مع الله- تعالى- حتى لا يُجعل الطريق الموصل إليه في صورة ناقصة تُلحق بالخط الذي خطه ﷺ، وإنما هو في غاية الوضوح والظهور لمن هداه الله- تعالى- أن يسلكه.

كما لا يخفى ما فيه من (إشارة إلى أن سبيل الله وسط ليس فيه تفريط ولا إفراط، بل فيه التوحيد والاستقامة ومراعاة الجانبين في الجادة، وسبل أهل البدع مائلة إلى الجوانب، وفيها تقصير وغلو وميل وانحراف وتعدد واختلاف)(٢).

وإذا وليت وجهك نحو الشعر وجدت كثيرا من معاني الشعراء قد ورد على هذه الشاكلة، حيث يفسحون الطريق للخيال لتحلق الصورة في سماوات أرحب؛ وتسبح في عالم أوسع؛ مما يتيح لها التحرك بحرية فتأتي بإبداعات كثيرة منها مجيء الصورة التشبيهية على عكس أصلها المعهود مطابقة لمقام الكلام، ومبالغة في المعنى الذي أراده الشاعر.

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للهروي (١/ ٢٥٤)، نشر/ دار الفكر- بيروت- لبنان، لبنان، ط١، ١٤٢٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٥٤).

ومما ورد من ذلك قول امرئ القيس في معلقته:

فَعَــنَّ لنـــا سِـــرْبٌ كـــأنّ نِعاجَـــه ذارَى دَوارٍ فـــي مُـــلاءٍ مُـــذَيَّلِ[1]

والمعنى: " فعرض لنا وظهر قطيع من بقر الوحش كأن إناث ذلك القطيع نساء عَذارَى يطفن حول حجر منصوب يطاف حوله في ملاء طويل ذيولها، وشبه المها في بياض ألوانها بالعذارى لأنهن مصونات في الخدور لا يغير ألوانهن حر الشمس وغيره، وشبّه طول أذيالها وسبوغ شعرها بالملاء المذيل. وشبّه حسن مشيها بحسن تبختر العذارى في مشيهن"[2].

وتشبيه المها بالنساء عكس للصورة التشبيهية؛ فالأصل أن تشبه النساء بالمها، لكن الشاعر عكس الصورة وجعلهن في موقع المشبه به للمبالغة في وصف النساء المخدرات بالحسن.

يقول الدكتور/ شوقي ضيف عن هذا التشبيه: "عكس الصورة فشبه البقر بالنساء، وهو تشبيه مقلوب، تبعه فيه الشعراء، وأصبح ضربا من ضروب الخيال التى ينسجونها"[3].

---

(١) ديوان امرئ القيس، ت/ عبد الرحمن المصطاوي (ص: ١٦)، نشر/ دار المعرفة– بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(٢) شرح المعلقات السبع للزوزني (ص: ٧٠)، نشر/ دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

(٣) تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف (١/ ٢٦٢)، نشر/ دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٦٠م.

ومن هذا النوع أيضا قول البحتري في وصف بركة المتوكل:

كأنَّهـــا حِـــينَ لَجَّـــتْ فِـــي تـــدفُّقها يَـــدُ الخَليفـــة لَمَّـــا سَـــالَ وَادِيهَـــا[1]

حيث قلب الشاعر التشبيه؛ فالأصل أن تُشبه يد الخليفة في تدفقها بالعطاء والنوال ببِركة الماء في غزارتها وتدفق مائها، لكن الشاعر عكس التشبيه؛ للمبالغة في وصف الممدوح بالكرم بادعائه أن غزارة عطاء الممدوح أعظم من تدفق مياه البركة.

ولا شك أن هذه المبالغة تتوافق مع مقام المدح الذي جاء عليه البيت، ومثل هذه الصور مما يعجب الممدوحين ويهزهم للبذل والعطاء.

ويبدو أن البحتري كان شغوفا بمثل هذه الصور المعجبة؛ فقد وردت الصورة المعكوسة في أشعاره كثيرا، ومن ذلك قوله:

كَـــأَن سَـــنَاها بالعَشِـــيِّ لصـــبُحها تبَسُّـــمُ عِيسَـــى حِـــين يلفـــظُ بالوعْـــدِ

شبّه البحتري برق السحابة الذي ظلّ لّماعا طوال الليل بتبسم الممدوح حين يعد بالعطاء، ولا شك أن لمعان البرق أقوى من بريق الابتسام، فكان المألوف أن يشبّه الابتسام بالبرق على عادة الشعراء، ولكن البحتري قلب التشبيه تفننا في التعبير والتماسا للمبالغة بادّعاء أن وجه الشبه أقوى في المشبّه"[2].

وكقوله أيضا في تشبيه حمرة الورد بحمرة خدي محبوبته، وتشبيه تمايل الغصن إذا هزّه النسيم بتثني قدّها:

(١) ديوان البحتري: صـ ٣١٩، مطبعة هندية بمصر، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م.

(٢) ينظر: علم البيان، عبد العزيز عتيق(ص: ٩٨)، نشر/ دار النهضة العربية، بيروت– لبنان، لبنان، عام ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٢م.

فـي حُمـرَةِ الـوَرْدِ شَـكْلٌ مـن تَلَهّبِهـا وللقَضِـيبِ نَصِـيبٌ مِـنْ تَثَنّيهَـا[1]

فالمعهود أن تشبه حمرة الخدود بحمرة الورد والقوام بالقضيب لكن البحتري ادعى أن خدي المحبوبة قد فاقا الورد في الحمرة، وقوامها قد فاق القضيب في الاعتدال حتى استحقا أن يكونا الأصل، ويلحق بهما حمرة الورد واعتدال القضيب؛ لإفادة المبالغة.

وقال أيضًا في تشبيه الندى على شقائق النعمان بدموع الشوق على خدود الحسان:

شَـقَائِقُ يَحمِلْـنَ النّـدَى، فكأنّـهُ دُمُوعُ التّصَابي مِنْ خُدودِ الخَرَائِدِ. [2].

والأصل تشبيه الدموع على خدود الحسان بالندى على شقائق النعمان.

ومن مشهور هذا النوع قول محمد بن وهيب:

وبَـدَا الصـباحُ كـأنَّ غُرَّتَـهُ وَجْـهُ الْخَلِيفَـةِ حِـين يُمتَـدحُ[3].

حيث شبه غرة الصباح بوجه الخليفة إيهاما أنه أتم وأكمل في الضياء من الصباح، والمعهود العكس لكن الشاعر لما أراد المبالغة في وصف الممدوح بالضياء جعله أصلا وألحق به غرة الصباح.

(١) ديوان البحتري: صـ ٣٢٠.

(٢) ديوان البحتري : صـ ١٣٦.

(٣) الْبَيْت لمُحَمد بن وهيب الْحِمْيَرِي من قصيدة من الْكَامِل يمدح بهَا الْمَأْمُون أَولهَا:

(العذرُ إن أنصفتَ متضحُ وشهودُ حبكَ أدمُعٌ سفُحُ)

ينظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص لأبي الفتح العباسي، ت/ محيي الدين عبد الحميد (٢/ ٥٧)، نشر/ عالم الكتب– بيروت.

وإنما كان هذا التشبيه مقلوبا؛ "لأنه علم أن مقصود الشاعر منه تشبيه الخليفة بالصباح لا العكس"(١).

يقول الإمام عبد القاهر واصفا جمال هذا التشبيه وروعته بما لا مزيد عليه: "فهذا على أنه جعل وجه الخليفة كأنه أعرف وأشهر وأتمّ وأكمل في النور والضياء من الصّباح، فاستقام له بحكم هذه النّيّة أن يجعل الصباح فرعا، ووجه الخليفة أصلا.

واعلم أن هذه الدعوى وإن كنت تراها تشبه قولهم: «لا يدرى أوجهه أنور أم الصّبح، وغرّته أضوأ أم البدر»، وقولهم إذا أفرطوا: «نور الصباح يخفى في ضوء وجهه»، أو «نور الشمس مسروق من جبينه»، وما جرى في هذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة فإن في الطريقة الأولى خلابة وشيئا من السحر، وهو أنه كأنه يستكثر للصّباح أن يشبّه بوجه الخليفة، ويوهم أنه قد احتشد له، واجتهد في طلب تشبيه يفخّم به أمره، وجهته الساحرة أنه يوقع المبالغة في نفسك من حيث لا تشعر، ويفيدكها من غير أن يظهر ادّعاؤه لها، لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متّفق عليه، ويزجّي الخبر عن أمر مسلّم لا حاجة فيه إلى دعوى ولا إشفاق من خلاف مخالف وإنكار منكر، وتجهّم معترض، وتهكّم قائل: «لم؟»، و «من أين لك ذلك؟».

والمعاني إذا وردت على النّفس هذا المورد، كان لها ضرب من السّرور خاصّ، وحدث بها من الفرح عجيب، فكانت كالنعمة لم تكدرها المنّة، والصّنيعة لم ينغّصها اعتداد المصطنع لها"(٢).

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: (٢/ ٨٣).

(٢) أسرار البلاغة: ١٦٤/ ١٦٥.

ومن التشبيه المقلوب الذي عكست فيه الصورة أيضا إطلاقهم على الناقة وصف الجمل، وتسميتها جمالية، ثم يعكسون ويطلقون على الذكر جمالية تشبيها له بالناقة الجمالية، وقد ذكر ابن سيدة قول الفارسي" قال الفارسي: هذا من معكوس التشبيه، إنما يقال في الناقة جمالية، تشبيها لها بالجمل، لشدته وصلابته وفضله في ذلك على الناقة، ولكنهم ربما عكسوا فجعلوا المشبه به مشبها، والمشبه مشبها به، وذلك لما يريدون من استحكام الأمر في الشبه، فهم يقولون للناقة جمالية، ثم يشعرون باستحكام الشبه، فيقولون للذكر جمالي، ينسبونه إلى الناقة الجمالية، وله نظائر في كلام العرب، وكلام سيبويه"[(١)].

والأمثلة على التشبيه المقلوب أكثر من أن تحصى، وقد وافقت في معظم المواضع مقامها، فهي فضلا عما فيها من جمال معجب، فإنها تحدث صدمة مستعذبة للقارئ حين يفاجأ بالمتكلم يخرج من عباءة التقليد، ويأتيه من طريق عكسي، ويقلب له الصورة المتعارف عليها، المركوزة في ذهنه، هذا فضلا عما فيه من مبالغة وكسر للرتابة، وخلق نوع جديد من العلاقات بين طرفي التشبيه، كما لا يخفى ماله من أسرار كثيرة غير ذلك تتعدد بتعدد مقامات الكلام.

ومعظم المواضع التي ورد فيها التشبيه معكوسا كانت غاية في الروعة والجمال والمبالغة واستحسنها النقاد، وندر منها مالم يستجده النقاد وأخذوا يبحثون له عن علل لقبوله، حيث عابوا على امرئ القيس قوله:

إذا قامَتا تَضَوّعَ الْمِسْكُ مِنْهُمَا نسيمَ الصَّبا جاءت برَيّا القَرَنْفُلِ[(٢)]

(١) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، ت/ عبد الحميد هنداوي(١/ ١١٧)، نشر/ دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م. وينظر: الخصائص: ١/ ٣٠١.

(٢) ديوان امرئ القيس ت/ المصطاوي (ص: ٢٥).

عابوا عليه تشبيه المسك بالقرنفل، وقالوا: إنما يشبه القرنفل بالمسك؛ لأنه أجلّ منه، وقد خرج النقاد له وجهاً غير ذلك فقالوا: إنه أراد بقوله تضوع، أي مثل المسك[1].

ولا شك أن هذا يختلف باختلاف الأذواق والأفهام.

(١) ينظر: البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ، ت/ د/ أحمد أحمد بدوي، د/ حامد عبد المجيد، مراجعة: الأستاذ إبراهيم مصطفى، صـ ١٧٧، نشر/ الجمهورية العربية المتحدة – وزارة الثقافة والإرشاد القومي – الإقليم الجنوبي – الإدارة العامة للثقافة.

المبحث الثاني
الصورة المعكوسة في المجاز

المجاز- كما هو معلوم- في البلاغة العربية يشمل الاستعارة والمجاز المرسل، ويطلق عليهما المجاز اللغوي، ويشمل كذلك المجاز العقلي، وقد انتشرت الصورة المعكوسة في أنواع المجاز الثلاثة، فاشتملت عليها بعض صور الاستعارة، ورأيناها في بعض علاقات المجازين:(المرسل والعقلي)، فـ" للقلب علاقة بكثير من أنواع المجاز، ولا يخفى أن ذلك فيه تثرية للمعاني، وتكثير للأغراض، ودلالة على جهد علماء العربية الذين يحاولون- قدر طاقتهم- إبراز مكنونات تراكيبها"(١).

وقد وردت الصورة المعكوسة في الاستعارة كثيرا خاصة في القرآن الكريم، وكان أكثر مواطن ورودها في الحديث عن الكفار في جهنم، وقد لعبت الصورة المعكوسة عن طريق الاستعارة دورا رائدا في التبكيت والتوبيخ لهم قبل دخولهم فيها وأيضا وهم يقاسون عذابها.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٢١ – ٢٢].

قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٢) استعار التبشير وهو للخير للإنذار وهو للشر، والأصل: فأنذرهم، فاستعمل اللفظ في عكس معناه.

(١) القلب البلاغي، د/ مصطفى السيد جبر، صـ ٤٩٠، نشر/ دار المصري للطباعة، الهرم.

(٢) ورد مثل هذه الاستعارة أيضا في سورة التوبة: ٣٤، وسورة الانشقاق: ٢٤.

يقول العلوي: "فالبشارة إنما تورد في الأمور السارة اللذيذة، وقد أوردها هنا في عكسها تهكما بهم وغضبا عليهم"(١).

وقال الزمخشري: "وأما ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به وتألمه واغتمامه، كما يقول الرجل لعدوه: أبشر بقتل ذريتك ونهب مالك"(٢)، وهي استعارة تهكمية؛ لأن" لفظ البشارة دال على الوعد وعلى كل محبوب، فإذا وصل بالمكروه كان دالا على التهكم لإخراجه المحبوب في صورة المكروه"(٣).

وعكس الصورة هنا يحمل استهزاءً شديداً بهم يليق بجرائمهم التي عددتها الآية من كفرهم بآيات الله- تعالى- وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقتلهم أهل الصلاح والتقوى، كل هذه أفعال تدل على استهزائهم وعنادهم؛ فكان الجزاء من جنس العمل، وكانت النتيجة استهزاء المولى بهم من خلال استعارة البشارة للإنذار؛ مما يدل على شدة الغضب منهم والسخط عليهم.

ولا يخفى ما تحمله أيضا هذه الصورة المعكوسة هنا من عذاب نفسي شديد الوقع عليهم؛ فإنهم حين يسمعون لفظ البشارة يظنون أن ما يأتي بعده سيكون خيرا فإذا به عذاب شديد يؤلمهم عكس ما كانوا يتوقعون، وهنا يحدث لهم" انقباض مفاجئ أليم ابتداء مطمع ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ وانتهاء مُيْئِس ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهنا يكون الإحساس بالمصيبة أشد، لأن الحق لو أنذرهم وأوعدهم من أول الأمر بدون أن

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوي (٣/ ٢٠٢)، نشر/ المكتبة العنصرية – بيروت، ط١، ١٤٢٣ هـ.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ١٠٤).

(٣) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (٣/ ٩١).

يقول: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ لكان وقوع الخبر المؤلم هينا، لكن الحق يريد للخبر أن يقع وقوعاً صاعقا"(١).

وذكر الراغب: أن في هذا" تنبيهاً أن السارَّ لهم الإخبار بالعذاب الأليم، فما الظن بما وراءه؟"(٢).

كما أن عكس الصورة هنا يتواءم مع حالهم المعكوس؛ فهم يكفرون بآيات الله بدلا من الإيمان بها، ويقتلون النبيين بدلا من الإيمان بهم والإذعان لما جاءوا به، ويقتلون المصلحين من الناس بدلا من الاقتداء بهم ومساعدتهم على نشر الخير والفضيلة، لا شك أن هذه كلها أفعال تخالف الفطرة السليمة، وتعاكس الجبلة السوية؛ فناسب ذلك أن تأتي الصورة على هذه الهيئة المعكوسة مبالغة في التهكم بهم.

وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم على هذه الصورة المعكوسة للغرض نفسه وهو المبالغة في التهكم بالكفار والمنافقين كقوله تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾ [النساء: ١٣٨]. وقوله: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٤]، والهداية لا تكون إلا للخير، وقوله: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان: ٤٩]، أي: الذليل المهان، وكاستعمال الوعد في الشر كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحج: ٧٢]، فالوعد دائماً يكون

(١) تفسير الشعراوي (٣/ ١٣٧٧).

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني، ت/ د. محمد عبد العزيز بسيوني(١/ ١٢٢)، نشر: كلية الآداب – جامعة طنطا، ط١، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م

بالخير، أما هنا فاستُعملَ في الشر على سبيل الاستهزاء بهم والتقليل من شأنهم، فـ" التعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم مذهب واسع"(١).

ومعلوم أن "التهكم في اللغة عبارة عن شدة الغضب على المتهكم به، لما فيه من إسقاط أمره وحط منزلته وحاله، واشتقاقه من: تهكمت البئر، إذا سقط طيها. وهو كثير التدوار فى كتاب الله- تعالى- خاصة عند عروض ذكر الكفار وأهل الشرك والنفاق كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٥] وغير ذلك من الآيات الوعيدية، والخطابات الزجرية الدالة على مزيد الغضب وبالغ الانتقام"(٢).

ونظير هذا أيضا قوله تعالى حكاية عن قوم سيدنا شعيب- عليه السلام: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [هود: ٨٧]، أي: السفيه الغوي.

يقول السكاكي: "وقول قوم شعيب " إنك لأنت الحليم الرشيد " بدل السفيه الغوي لقرائن أحوالهم، ومما نحن فيه قولهم للشمس جونة لشدة ضوئها، والجون الأسود، وللغراب أعور لحدة بصره"(٣).

ومنه أيضا استعارة الاشتراء للاستبدال في قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٦].

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٥٧١).

(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (١/ ١٢٨).

(٣) مفتاح العلوم للسكاكي، ت/ نعيم زرزور (ص: ٣٨١)، نشر/ دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

يقول الإمام الطيبي في حاشيته: "بولغ أولاً بأن شبه هذا الاستبدال في كونه مرغوباً فيه بالبيع والشراء، ثم زيد في المبالغة بأن قلبت القضية، وجعل الثمن مبيعاً، والمبيع ثمناً... فجعلت الآيات في الابتذال والامتهان وكونها ذرائع إلى سائر مباغيهم كالدراهم المبذولة لقضاء الحوائج. ومقام التقريع والنعي على بني إسرائيل وسوء صنيعهم يقتضي هذه المبالغة"(١).

والصورة المعكوسة هنا تصور أبلغ تصوير شدة ضلالهم؛ حيث تركوا الهدى والرشاد، وسلكوا طريق الضلالة والغواية، ولا شك أن هذا شيء يخالف الطبائع السوية ويعاكسها؛ فاقتضى ذلك أن يأتي الكلام على هذه الصورة المعكوسة تناسبا مع حالهم المعكوس.

ولا يعدم المتطلع أمثلة كثيرة لذلك في أشعار العرب جاءت على هذه الصورة المعكوسة، منها: استعارة التحية وهي تدل على الإكرام والمحبة للقتل في قول عمرو بن معد يكرب :

وَخَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهَا بِخَيْلٍ تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ (٢)

أي كان مكان التحية هذا النوع من الضرب.

ولا يخفى ما في العكس من تناسب مع المعنى؛ فكون التحية من نوع الضرب الموجع هذا أمر يخالف الأصل والعادة؛ لذلك ناسبه أن تأتي صورة الكلام أيضا معكوسة.

(١) حاشية الطيبي على الكشاف: (٢/ ٤٥٨).

(٢) شعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي، جمع وتنسيق/ مطاع الطرابيشي صـ ١٤٩،مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

ونظيره أيضا التعبير بالعتاب وهو دليل المحبة والمراد القتل وهو دليل العداوة والكره في قول بشار:

إِذَا المَلِكُ الجبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ مَشَيْنَا إِلَيْهِ بِالسُّيُوفِ نُعَاتِبُه[1].

والعتاب دليل المحبة لا يكون بالسيف.

وكقول القطامي:

لم تَلقَ قَوْماً همُ شَرٌّ لإِخْوَتِهِمْ مِنَّا عَشِيَّةَ يَجْرِي بالدَّمِ الوادي

تَقْرِيهِمُ لَهْذَمِيَّاتٍ نَقُدُّ بها ما كَانَ خاط عَلَيْهِم كُلُّ زَرَّادِ[2]

واللهذم من الأسنة: القاطع، واللهذميات منسوبة إليها؛ وذلك لأن "اللهذميات لا يصح تعلق القِرى الحقيقي بها، إذ هو تقديم الطعام للضيف، فعلم أن المراد به هنا ما يناسب اللهذميات وهو تقديم الطعنات عند اللقاء أو الأسنة، فشبه تقديم الطعنات أو الأسنة عند اللقاء بالقرى وهو تقديم الأطعمة الشهية للضيف بجامع أن كلاً تقديم ما يصل من خارج لداخل، واستعير اسم القرى لتقديم الطعنات أو الأسنة، واشتق من القرى نقريهم بمعنى نقدم لهم الطعنات، أو الأسنة على طريق الاستعارة التبعية"[3].

(١) ديوان بشار بن برد، ت/ محمد الطاهر بن عاشور، ١/٣٣٤، وزارة الثقافة الجزائرية ٢٠٠٧م.

(٢) ديوان القطامي، ت/ د/ إبراهيم السامرائي، أحمد مطلوب، نشر/ دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦٠م.

(٣) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني، ت/ عبد الحميد هنداوي (٣/ ٣٦٨)، نشر/ المكتبة العصرية- بيروت.

ومن ذلك أيضا إطلاق الأسد على الجبان في مقام الاستهزاء والسخرية والتهكم.

وقد حمل محيي الدين درويش مثل هذه المواضع على المجاز المرسل لعلاقة الضدية مرادا به التهكم[1]، وذلك عند حديثه عن استعمال المثوبة في العقاب في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: ٦٠].

وذكر أن: "مجمل المعنى: قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم لعبا ولهوا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار: هل أنبئكم بشرّ من أهل ذلك الذي تنقمونه منا، وشر من مثوبته؟ أي: عقابه. وقد أخرج الكلام على حسب قولهم واعتقادهم، وإلا فلا شركة بين المؤمنين وبينهم في أصل العقوبة، حتى يقال: إن عقوبة أحد الفريقين شرّ من عقوبة الآخر، ولكنهم حكموا بأن دين الإسلام شرّ فقيل لهم: هبوا الأمر كذلك، ولكن لعنة الله- تعالى- وغضبه، والإبعاد عن رحمته، والطرد من ساحة رضاه، ومسخ الصورة إلى أقبح أنواع الحيوان وأرذله شرّ من ذلك الذي تزعمون أنه شر، وأنت تعرف ما لنوعي القردة والخنازير من الخسة والحقارة، وما لهما في صدور الدهماء والخاصة من القبح والتشويه وشناعة المنظر، ونذالة النفس، وحقارة القدر، ووضاعة الطبع، وسماجة الشكل والخلق، وقبح الصوت ودناءة الهمة، مما ليس لغيرهما من سائر أنواع الحيوان"[2].

ومن ضمن صور المجاز التي تأتي فيه الصورة معكوسة ما يكون في بعض علاقات المجاز المرسل والعقلي، وذلك كعلاقة الضدية في المجاز المرسل،

(١) ينظر: إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش (٢/٥١٤).

(٢) إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش (٢/٥١٤).

وهي من العلاقات غير المشهورة في المجاز، وهي: "أن يُطْلَق اللّفظ للدلالة به على ضدّ معناه"(١)، كإطلاقهم على اللديغ، سليم؛ تفاؤلا بسلامته، وتطيرا من الداء الذي أصابه، وكإطلاقهم على الفلاة، مفازة، وفيها الهلاك.

وتكمن بلاغة هذه الصور المعكوسة في إبراز النظرة التفاؤلية الطيبة التي كان التي يتمتع بها العربي حتى في أحلك الأوقات، وأصعب الظروف، وبث روح الأمل والتفاؤل لدى المتلقي الذي ألمت به نازلة؛ بذكر ما يدل على سلامته ونجاته.

ومنه إطلاق لفظ الأعمى على البصير في قولنا: انظر أيها الأعمى، في مقام التوبيخ فالمراد بلفظ الأعمى البصير، وما يأتي على هذه الشاكلة.

كذلك من علاقات المجاز المرسل التي يمكن أن تندرج تحت الصورة المعكوسة، علاقتي: اعتبار ما كان واعتبار ما يكون ، حيث يسمى الشيء باسم ما كان عليه في الماضي، وباسم ما سيكون عليه في المستقبل، ولكل صورة بلاغتها العالية، وأسرارها الجليلة التي تعجز الصورة الحقيقية عن البوح بها والإفصاح عنها؛ فقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء:٢]، أي الذين كانوا يتامى ثم بلغوا، فأطلق- سبحانه- اليتامي على البالغين، ولا يُتم بعد البلوغ.

وتتجلى بلاغة الصورة المعكوسة هنا بما تحمله من ترقيق لقلوب الأوصياء، وحملهم على إعطاء من كانوا يتامى حقوقهم كاملة بعد البلوغ، إذ يكفيهم ذل اليتم الذي عانوه قبل البلوغ؛ مما يدل على تعجيل دفع أموالهم إليهم فور البلوغ وإيناس الرشد، وهو ما تذكرهم به الصورة المعكوسة هنا، ولولاها ما كنا لنلمس هذه الأسرار الجليلة.

(١) البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة، ٢/ ٢٨٢،نشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.

كما أن فيه- كما ذكر الزمخشري-: "إشارة إلى أن لا يؤخر دفع أموالهم إليهم عن حد البلوغ، ولا يمطلوا إن أونس منهم الرشد، وأن يؤتوها قبل أن يزول عنهم اسم اليتامى والصغار"(١).

وعلاقة اعتبار ما يكون كقوله تعالى على لسان سيدنا نوح- عليه السلام- بعدما يئس من قومه، وبعدما أخبره ربه بأنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، فدعا عليهم بأن يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر؛ معللا ذلك بأنهم سيضلون العباد، ولن يأتي من نسلهم خير: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧]، والطفل وقت ولادته لا يوصف بالفجور ولا بالكفر، وإنما يولد على الفطرة كما أخبر المعصوم- صلى الله عليه وسلم-، والفطرة هي الإسلام الذي يكونون عليه في وقت الولادة، لكن الكلام جاء على العكس ووصف الطفل المولود لهم بالفجور والكفر؛ ليؤكد استحقاقهم الهلاك؛ بأنهم لن يكون منهم خير على الإطلاق من ناحية، ويبرز من ناحية أخرى يأس سيدنا نوح- عليه السلام- من إيمانهم، وقطعه الأمل في هدايتهم بعدما أخبره ربه- سبحانه- بحقيقتهم.

ومن أنواع المجاز أيضا المجاز العقلي، وهو ما يكون التجوز فيه في الإسناد، وله علاقات كثيرة أيضا، ومن أبرز العلاقات التي تتجلى فيها الصورة المعكوسة في هذا المجاز علاقتي(الفاعلية والمفعولية).

فعلاقة الفاعلية تتحقق " فيما بني للمفعول وأسند للفاعل الحقيقي"(٢)، وذلك كقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ ﴾ [مريم: ٦١]، فالوعد آت لا مأتي، لكن الكلام

(١) الكشاف للزمخشري: (١/ ٤٦٤).

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة (١/ ٨٥).

جاء على العكس؛ ليصور لنا" وكأن الوعد يأتيه الناس الذين يسيرون إلى قدر الله فيهم"[١].

وفي المقابل تكون علاقة المفعولية وتكون" فيما بني للفاعل وأسند إلى المفعول به الحقيقي كقولهم، "عيشة راضية" إذ هي مرضية"[٢]، ولا شك أن الصورة المعكوسة هنا تدل على كمال الرضى الذي ينعم به أهل الجنة، حتى إنه تصبح عيشتهم نفسها راضية، وما دامت العيشة راضية فمن باب أولى أن يرضى صاحبها، كما أن رضى العيشة يدل على كمال التنعم في الجنة مما يجعل الرضى يحيط بكل ما فيها ويشمله، كل هذا نقلته لنا الصورة المعكوسة التي جاء عليها المجاز هنا.

ولهذه الصور المعكوسة التي جاء عليها المجاز بأنواعه المختلفة نظائر كثيرة في البيان العربي تقاس على ما ذكر ليتبين جمال مثل هذه الصور وروعتها.

(١) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني (ص: ١٠٧).

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة (١/ ٨٤).

المبحث الثالث

الصورة المعكوسة في التقديم والتأخير

معلوم أن الكلام قطعة من نفس قائله، والكلمات تخرج على صورة ترتيبها في النفس، وأغلب الصور والأساليب تأتي المعاني فيها مرتبة على صورة معهودة معروفة، وفي بعض الأحيان يعكس المتكلم هذا الترتيب المعهود فيقدم بعض الكلمات على بعض، وكان الأصل أن تتأخر؛ مما يُحدث تغييرا في المعنى يجعل الكلام مطابقا لمقتضى الحال.

وقد قسَّمه البلاغيون إلى قلب لفظي وقلب معنوي، وتقصد هذه الدراسة إلى القلب المعنوي الذي يتغير فيه المعنى فيتحقق فيه العكس، بخلاف التقديم اللفظي كتقديم المفعول على الفاعل في قولنا: خرق الثوبَ المسمارُ، فلم يتغير فيه المعنى، وظل الفاعل فاعلا كما هو والمفعول كذلك؛ لهذا لا يدخل معنا ضمن الصورة المعكوسة.

يقول السبكي: " اعلم أنه لا بد من تقديم مقدمتين: إحداهما أن القلب تارة نعنى به قلبا لفظيا فقط وتارة معنويا، مثال الأول: قطع الثوبَ المسمارُ؛ نعنى به أن الثوب مفعول وتنصبه والمسمار فاعل وترفعه، وكل منهما باق على ما هو له من فاعلية ومفعولية، ومثال الثاني: قطع الثوبُ المسمارَ، تريد أن الثوب هو لمبادرته بالتقطع كأنه هو الذى قطع المسمار فهذا قلب معنوي، لأنك تخيلت الفعل واقعا من الثوب على المسمار وأسندت له على سبيل المجاز"[1].

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/ ٢٨٨).

وأمثلة القلب المعنوي هي التي ركز عليها البلاغيون عند حديثهم في باب القلب، وربما اقتصر عليها معظمهم في هذا الباب، وهي التي لفتت انتباههم إليه.

وقد ورد مثل هذا في كلام الله- تعالى- وفي كلام الشعراء والأدباء.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩﴾ [لقمان: ٨ – ٩]

فقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، "معكوس، أي لهم نعيم الجنات، فعكس بين المضاف والمضاف إليه، والعكس فيه للمبالغة في وصف نعيم الجنات[١].

ولم يرِد هذا الأسلوب على صورته الأصلية (نعيم الجنات) على الرغم من تكرره في أكثر من موضع في الذكر الحكيم [٢].

ولعل السر في بلاغة العكس في مثل هذا الموضع ما ذكره الشهاب من أنه: " لجعل النعيم أصلاً ميزت به الجنات فيفيد كثرة النعيم وشهرته، وقيل لأن من ملك جنات النعيم كان له نعيمها كلها بطريق برهاني بخلاف ما لو قيل نعيم الجنات فإنه قد يتنعم بشيء غير مالكه"[٣].

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٤/ ٢١٣). وفتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٧١)، نشر/ دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط١ – ١٤١٤ هـ.

(٢) ورد هذا التركيب على هذه الصورة في أكثر من موضع في القرآن الكريم، حيث ورد في: المائدة:٦٥، ويونس: ٩، والحج: ٥٦، ولقمان: ٨، والصافات: ٤٣، والواقعة:١٢، والقلم:٣٤.

(٣) حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي، لشهاب الدين الخفاجي المصري، (٧/ ١٣٢)، نشر/ دار صادر – بيروت .

وذكر الألوسي هذا الوجه وزاد عليه وجها آخر فقال: "وإضافة الجنات إليه باعتبار اشتمالها عليه نظير قولك: كتب الفقه، وفي هذا إشارة إلى أن لهم نعيمها بطريق برهاني فهو أبلغ من لهم نعيم الجنات إذ لا يستدعي ذلك على أن تكون نفس الجنات ملكا لهم فقد يتنعم بالشيء غير مالكه، وقيل: في وجه الأبلغية: إنه لجعل النعيم فيه أصلا ميزت به الجنات فيفيد كثرة النعيم وشهرته، وأيا ما كان فجنات النعيم هي الجنات المعروفة"(١).

ومن هذا النوع أيضا قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

ذكر ابن عطية أن: " في المعنى قلبا، والمراد ولما سكت موسى عن الغضب فهو من باب أدخلت فمي في الحجر وأدخلت القلنسوة في رأسي، وفي هذا أيضا استعارة، إذ الغضب ليس يتكلم فيوصف بالسكوت"(٢).

ونقل القرطبي قول عكرمة:(سكت موسى عن الغضب، فهو من المقلوب. كقولك: أدخلت الأصبع في الخاتم وأدخلت الخاتم في الأصبع. وأدخلت القلنسوة في رأسي، وأدخلت رأسي في القلنسوة)(٣).

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي، ت/ علي عبد الباري عطية، (١١/ ٧٩)، نشر/ دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، ت/ عبد السلام عبد الشافي محمد، (٢/ ٤٥٩) نشر/ دار الكتب العلمية – بيروت، ط١ – ١٤٢٢ هـ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ت/ أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش (٧/ ٢٩٣)، نشر/ دار الكتب المصرية – القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م.

ومجيئ الكلام على هذه الهيئة المعكوسة متوافق مع المقام، حيث إن المقام مقام غضب لموسى- عليه السلام- عندما رجع إلى قومه بعدما غاب عنهم أربعين يوما فوجدهم قد بدلوا وأشركوا بالله- تعالى- فاشتاط غضبا منهم ومن هارون أخيه؛ وكان قد استخلفه عليهم مدة غيابه؛ فكان موسى- عليه السلام- على صورة غير المعهودة منه مع أخيه حين ألقى الألواح وأخذ برأسه يجرُّه إليه؛ فناسب هذا أن تأتي صورة الكلام أيضا معكوسة لتصور الحالة أبلغ تصوير.

هذا فضلا عن أنها تدل على أن" الغضب كان أمرا عارضا لموسى بسبب أن قومه انتهكوا حمى التوحيد، وأشركوا بالله، ولم يغب عنهم إلا أربعين ليلة، فاستطالوها وعجَّلوا به مخالفين أمر ربهم، وبعد أن سكن هذا الغضب، أقام أمر الله ونهيه، وقد كان سريع الفيئة كما روينا أي سريع الرضا، وكذلك شأن النبيين لَا يلج بهم الغضب؛ حتى لا يشغلوا عن الدعوة إلى الحق الذي بعثهم الله- تعالى- لإقامته... مما يدل على أنه عارض زال فعاد الواجب قويا قائما"[1].

ومن هذا النوع أيضا قوله- تعالى- في قصة سيدنا موسى- عليه السلام- : ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢].

أي: حرَّمناه على المراضع؛ وذلك لأن" التحريم لا يقع إلا على مَن يلزَمُه الأمر والنّهي، وإذا كان كذا فالمعنى: وحرَّمنا على المراضع أن يرضِعْنَه. ووجه تحريم إرضاعه عليهن أن لا يقبَل إرضاعهن حتى يُرَد إلى أمّه"[2].

(١) زهرة التفاسير للشيخ/ محمد أبو زهرة، (٦/ ٢٩٦١/٢٩٦٢) ، نشر/ دار الفكر العربي.
(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣/ ٢٩١،.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾ [ق: ١٩]. ذكر الزركشي أنه" قيل في قوله: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي إنه من المقلوب، وأنه {وجاءت سكرة الحق بالموت} وهكذا في قراءة أبي بكر"[1].

وقد أدخل الإمام السيوطي- رحمه الله- آيات كثيرة ضمن هذا النوع، وأطلق عليها مسمى قلب الإسناد فقال: "القلب إما قلب إسناد نحو: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ [القصص: ٧٦]، أي: لتنوء العصبة بها، و﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ [الرعد: ٣٨]، أي لكل كتاب أجل، و﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ﴾ [القصص: ١٢]، أيك حرمناه على المراضع، و﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، أي تعرض النار عليهم لأن المعروض عليه هو الذي له الاختيار، ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٞ ٨﴾ [العاديات: ٨]، أي وإن حبه للخير، ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ﴾ [يونس: ١٠٧]، أي: يرد بك الخير، " فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ "؛ لأن المتلقي حقيقة هو آدم كما قرئ بذلك أيضا"[2].

ومن العكس عن طريق التقديم في الشعر قول عروة بن الورد:

فلو أنِّي شهدتُ أبا سعادٍ غداةَ غَدا بمهجتِهِ يفوقُ
فديتُ بنفسِهِ نفسِي ومالِي وما آلوكَ إلا ما أطيقُ [3]

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي: (٣/ ٢٩٠).
(٢) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ١٢٨).
(٣) البيت في لسان العرب لابن منظور منسوب لعروة مادة(تيز)، ٥/ ٣١٦، نشر/ دار صادر – – بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ولم أعثر عليه في ديوان الشاعر.

والأصل: فديت نفسي ومالي بنفسه، وقد أرجع قدامة العكس هنا إلى الضرورة الشعرية كما هو الشأن عنده في كل قلب، وهو ما لم يقل به أحد[١].

ومنه أيضا قول العرب: (عرضت الناقة على الحوض)، مكان (عرضت الحوض على الناقة)، أي أظهرته عليها لتشرب، (وأدخلت القلنسوة في الرأس) مكان(أدخلت الرأس في القلنسوة)، والأصل" أن يجاء بالمعروض إلى المعروض إليه، وأن ينقل المظروف إلى الظرف لا بالعكس كما هنا"[٢].

ويرى ابن السكيت أن " عرضت الناقة على الحوض" هو الأصل وأن المقلوب "عرضت الحوض على الناقة" فكأنه لاحظ أن المعروض عليه يكون أمرًا مستقرًا"[٣]، وعلى هذا فلا عكس في الصورة.

ونحوه قول أبي تمام يصف قلم الممدوح:

لُعابُ الأَفاعي القَاتِلاتِ لُعابُهُ وأَرْيُ الجنى اشتَارَتْهُ أَيْدٍ عواسِلُ [٤]

والأصل لعابه لعاب الأفاعي القاتلات، فعكس الكلام وقدم وأخر لإفادة المبالغة في الفتك والهلاك الحادث من الأوامر التي يكتبها قلم الممدوح لجنده بالقضاء على الأعداء.

(١) ينظر: نقد الشعر لقدامة بن جعفر، صـ٨٧، نشر/ مطبعة الجوائب – قسطنطينية، ط١٣٠٢،١هـ.

(٢) علوم البلاغة للمراغي (ص: ١٤٥).

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة (٢/ ٩٧).

(٤) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ت/ محمد عبده عزام، ٣/ ١٢٣، دار المعارف، ط٤.

وعكس الصورة هنا يجعل البيت مُصَدَّراً بما يُخاف منه (لعاب الأفاعي)؛ إبرازا لشدة الفتك والهلاك، وإلقاء الرعب في قلب السامع حين يكون أول ما يقرع سمعه مثل هذا التعبير المخيف، وهو ما يتناسب مع المعنى الذي أراده السامع لتصوير قلم ممدوحه في هذه الصورة المرعبة، ساعده وصف الأفاعي بالقاتلات.

ويمكن إدراج هذه الصورة أيضا ضمن التشبيه المقلوب.

ومن هذا النوع أيضا قول رؤبة:

وَبَلَـــــدٍ عامِيَـــــةٍ أَرْجـــــاؤُهُ كَـــأَنَّ لَـــوْن أَرْضِـــهِ سَـــمَاؤُهُ [1]

والمراد: كأن لون سمائه لغبرتها لون أرضه، فعكس التشبيه لقصد المبالغة في وصف السماء بالغبرة.

وكل هذه المواضع جاء العكس فيها عن طريق تقديم بعض الألفاظ على بعض، وقد اشتملت على معاني حسنة تعتمد على ذكاء السامع ومدى تنبهه لما حدث في الكلام من عكس ومخالفة متعمَّدة؛ مما يجعلها في غاية البلاغة والجمال.

(١) ديوان رؤبة بن العجاج صـ٣، دار ابن قتيبة، الكويت.

المبحث الرابع
الصورة المعكوسة في زمن الأفعال

لكل نوع من الأفعال زمن خاصّ يشتهر به، ويغلب عليه، فالفعل الماضي يدل على حدث في الزمن الماضي، وفعل المضارع لما يحدث الآن أو في المستقبل، وفعل الأمر لفعل يُطلب إنشاؤه في المستقبل، هذا هو المعهود والمعروف، لكن في بعض المقامات قد يترك الفعل زمنه إلى زمن آخر، وتُعكس الصيغة فيُعبر بالماضي عن المستقبل والعكس مما يقتضيه المقام.

يقول ابن الأثير: " واعلم أيها المتوشّح لمعرفة علم البيان، أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخّاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطلع على أسرارهما، وفتش عن دفائنهما، ولا تجد ذلك في كل كلام؛ فإنه من أشكل ضروب علم البيان، وأدقّها فهما، وأغمضها طريقا."(١)

وأكثر ما ورد ذلك في القرآن الكريم، ومن ذلك التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: ١]، ومعنى أتى أمر الله: سيأتي.

وقد تعددت أقوال العلماء في تعليل هذا العكس فقيل: "إنما أتى بالماضي لأنه أمر سيكون لا بد منه، فأتى فيه بالماضي الذي قد كان في موضع ما سيكون.

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ت محيي الدين عبد الحميد (٢/ ١٢).

وقيل: إنما جاء كذلك لأنهم استبعدوا ما وعدهم الله من عذاب، فأتى بالماضي في موضع المستقبل لقربه من الإتيان، ولصدق المخبر به."[١]

وقيل إن: "المعنى: أتى أمر الله وعدا فلا تستعجلوه وقوعا. وقيل: أتى أمر الله، أتت مبادئه وأماراته. وقيل: عبر بالماضي عن المضارع لقرب وقوعه وتحققه، وفي ذلك وعيد للكفار"[٢].

وقد أدخل بعض البلاغيين هذه الصورة ضمن صور الالتفات، ومنهم من ذكرها ضمن الاستعارة، وقالوا في إجرائها: "شبه الإتيان في المستقبل، بالإتيان في الماضي، بجامع تحقق الوقوع في كل، واستعير الإتيان في الماضي للإتيان في المستقبل واشتق منه أتى بمعنى يأتي، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية".[٣]، ومنهم من جعلها ضمن صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر."[٤]

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ت/ مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي – جامعة الشارقة، ٦/٣٩٤٤، ٣٩٤٥)، نشر/ مجموعة بحوث = الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

(٢) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان، ت/ صدقي محمد جميل، (٦/ ٥٠٣)، نشر/ دار الفكر – بيروت، ط ١٤٢٠ هـ. لهداية إلى بلوغ النهاية (٦/ ٣٩٤٤).

(٣) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع (ص: ٢٦٤).

(٤) ينظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/ ٢٨٧). والنظم البلاغي بين النظرية والتطبيق، د/ حسن إسماعيل الجناجي،صـ٣٠٣، نشر/ دار الطباعة المحمدية، القاهرة، مصر، ط١ ،١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

وقد وردت صور كثيرة في القرآن الكريم على هذه الشاكلة، وقد ذكر الإمام الزركشي- رحمه الله- أن ذلك" يغلب فيما إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة المهددة المتوعد بها فيعدل فيه إلى لفظ الماضي تقريرا وتحقيقا لوقوعه كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [إبراهيم: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ ﴾ [الكهف: ٤٧]، أي نحشرهم، وقوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا ﴾ بالأعراف: ٤٨]. ثم تارة يجعل المتوقع فيه كالواقع فيؤتى بصيغة الماضي مرادا به المضي تنزيلا للمتوقع منزلة ما وقع فلا يكون تعبيرا عن المستقبل بلفظ الماضي بل جعل المستقبل ماضيا مبالغة.

ومنه: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١]، ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ونحوه."[1]

وقد أبدع أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى- أطال الله عمره- حين عرض أمثلة كثيرة لمثل هذه الصورة، وحللها تحليلا دقيقا يكشف مكنونها ويبين بعض أسرارها كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ق: ١٩ – ٢٢]. فقال: "ليس من شك في أن صيغة الماضي ألقت على الأحداث طابع الحكاية المروية، وكأن كل ذلك قد وقع، وأنت الآن تسمع تلك القصة التي تملأ قبلك إشفاقا وخشية، هذا الأسلوب لا يدعك تفكر في إمكان وقوع الأحداث كما يكون الحال لو جاء بصيغة المضارع، وإنما يدعك تفكر في الأحداث، والمواقف

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣٧٢).

نفسها لتتأمل ما فيها من رهبة، أو رغبة فمسألة الوقوع، وعدمه ألغاها الفعل الماضي حين صيرها واقعا يروى، ونقلها من الممكن الذي سيكون، والآيات فيها كثير من الإشارات، والخصائص الواقعة أحسن موقع.

انظر كيف بدأت طريق القيامة من أوله أي حين يقارب خطو الإنسان عتبة الآخرة بمجيء سكرة الموت بالحق، وانظر إلى كلمة: وجاءت سكرة الموت، ولفظ الماضي الذي لا يدع الخاطر يحوم في أفق الانتظار، وإنما يلج به قلب الحقيقة التي شملته وأحاطت به، وانظر إلى اسم الإشارة الذي يتردد في هذا السياق ليبرز الحقائق التي كانت تحيد عنها النفوس، وتأمل كلمة: ﴿ تَحِيدُ ﴾ في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾، تجدها تبلغ الغاية في الدقة وتصوير حال النفس التي لا تستطيع أن تحدق في الحقائق القاسية، كلمة: ﴿ تَحِيدُ ﴾ تصف الهروب من مواجهة الحقائق، وكلمة ذلك تضع الحقيقة شاخصة في مواجهة النفس الهاربة... وهذا الأسلوب لا يهتدي إلى مواقعه الشريفة إلا من مهر في سياسة الأساليب، وقلما تعثر عليه في كلام القوم الذين نزل فيهم القرآن؛ لأني لم أجده بهذه الغزارة وهذه الإصابة، وهذا السخاء، وهذا الزخم"[1].

فالقرآن الكريم "يعرض كثيرا من مشاهد القيامة في صور الماضي، وكأنها أحداث قد وقعت، وذلك ليؤكد كينونتها، وأن زمن الدنيا في حساب الحق كأنه زمن قد انتهى ليواجه بهذا الأسلوب الحاسم دواعي الانصراف عن أمر القيامة."[2]

وقد يتطلب المقام أن يحدث العكس فيعبر عن الماضي بلفظ المستقبل استحضارا له، وإبرازا للفعل أمام العين فيكون ذلك أثبت للمعنى، وأقوى في التأثير؛

(١) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني (ص: ٢٦٨،٢٦٩)

(٢) السابق :(٢٦٦).

وذلك لأن" الفعل المضارع يدل على الحال أي على وقوع الحدث الآن، وهذه دلالته الأصيلة، ومن هنا كانت صيغته أقدر الصيغ على تصوير الأحداث؛ لأنها تحضر مشهد حدوثها، وكأن العين تراها وهي تقع، ولهذا الفعل مواقع جاذبة في كثير من الأساليب حين يقصد به إلى ذلك، وترى المتكلمين من ذوي الخبرة بأسرار الكلمات يعبرون به عن الأحداث الهامة التي يريدون إبرازها، وتقريرها في خيال السامع"(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩ ﴾ [فاطر: ٩]، فالأفعال كلها في الآية الكريمة ماضية، أرسل، سقناه، أحيينا، ما عدا الفعل" تثير" جاء مضارعا، ومعناه: فأثارت، وتجانس المتجاورين والمتعاطفين أمر مألوف في اللسان العربي، لكن المولى- سبحانه- عكسه هنا ليلفت النظر إليه، ويسلط الضوء عليه في هذا المشهد؛ إذ هو الأهم، وعلله ابن الأثير بأنه" حكاية الحال التي يقع فيها إثارة الريح السحاب، واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة، وهكذا يفعل بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية، كحال تستغرب أو تهمّ المخاطب أو غير ذلك"(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧ ﴾ [البقرة: ٨٧]، ذهب كثير من المفسرين إلى أن في الآية الكريمة عدولا عن الماضي إلى المضارع، والأصل: ففريقا كذبتم وفريقا قتلتم كما هو متبادر إلى الذهن عند ذكر الجملة الأولى﴿فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ ﴾، لكن الجملة الثانية ﴿وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴾ خالفت المتبادر إلى الذهن، بالعدول عن الماضي إلى المضارع، ولا

(١) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني: (٢٦٤).

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ت محيي الدين عبد الحميد (٢/ ١٣).

يخفى أن القتل أشد جرما، وأكبر إثما من التكذيب؛ إذ قتل الرسل هنا يشتمل ضمنا على التكذيب، والقتلة لم يكتفوا بتكذيب الرسل وإنما زادوا في البغي والطغيان إلى قتلهم، فجاء الفعل" تقتلون" مغايرا لما قبله للفت النظر إليه؛ لبيان شدة افترائهم وقوة ضلالهم؛ فجاء العكس هنا" استفظاعا للقتل واستحضارا لتلك الصورة الشنيعة للتعجب منها واستخلاص العبرة من مطاويها"(١).

ويتناغم العكس هنا مع انعكاس حال اليهود وما هم عليه من ضلال شديد؛ فإرسال الرسل طريق موصل للهداية والرشاد، والعاقل هو من يكرم من أراد له الهداية ويحتفي به، لكن اليهود انعكس حالهم، وأعماهم التكبر والاستهزاء فبدلا من أن يكرموا هؤلاء الهداة ويلتفوا حولهم ويناصروهم قتلوهم؛ وبهذا توافق العكس مع حالهم وشدة ضلالهم، كما أن فيه أيضا استحضارا لهذا المشهد المؤسف أمامهم وإطلاعهم عليه ليكون ذلك أقوى في إقامة الحجة عليهم وإلجامهم واستحقاقهم العقوبة الشديدة.

ومن ذلك أيضا قول تأبط شرا:

ألا مَنْ مُبْلِغٌ فِتْيانَ فَهْمٍ ... بما لاقَيْتُ عند رَحا بِطانِ

بأنِّي قد لَقِيْتُ الغُوْلَ تَهْوِيْ ... بسَهْبٍ كالصحيفةِ صَحْصَحانِ

فقلت لها: كِلانا نَضْوُ أرضٍ ... أخو سَفَرٍ فَخَلِّي لي مكانِي

فشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوي فأهْوَتْ ... لها كَفِّي بمَصْقولٍ يَمانِ

فأَضْرِبُها بلا دَهْشٍ فَخَرَّتْ ... صَريعاً لليَدَيْن وللجِرانِ(٢)

(١) إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش: (٢/ ٥٣٠)

(٢) ديوان تأبط شرا، صـ٧٥،٧٤، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م .

حيث يحكي الشاعر في هذه الأبيات شجاعته لقومه وهو يصارع الغول، لكنه عند لقطة معينة في البيت الأخير ينتقل من الحكاية إلى المشاهدة؛ حيث يستدعيهم معه لمشاهدة هذه اللقطة خاصة، وهي لقطة ضربه الغول "فأضربها"؛ ليكون دليلا قويا معترفا به على شجاعته وجراءته، ولو قال "فضربتها" لغاب الحضور عن هذا المشهد وأصبح لا فرق بينه وبين المشاهد الأخرى التي يحكيها الشاعر، لكن الشاعر قصد أن" يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بضرب الغول كأنه يبصرهم إياها، ويطلعهم على كنهها، ويطلب منهم مشاهدتها؛ تعجيبا من جرأته على كل هول، وثباته عند كل شدة"(١)، مما يبرز أثر العكس وقيمته الفنية هنا.

ونظير ذلك أيضا قول الزبير بن العوام في غزوة بدر قال: "لقيت عبيدة ابن العاص، وهو على فرس وعليه لأمة كاملة لا يرى منه إلا عيناه، وهو يقول: أنا أبو ذات الكئوس، وفي يدي عنزة فأطعن بها في عينيه، فوقع ثم أطأ برجلي على خده حتى خرجت العنزة من عنقه"(٢).

فسيدنا الزبير- رضي الله عنه-عبر بالأفعال الماضية لأن المقام مقام حكاية يتناسب معه التعبير بالفعل الماضي، لكنه ركز على لقطتين من المشهد وعكس فيهما صورة الفعل، وهي لقطة طعنه لعبيدة ولقطة وطء خده برجله، (فأطعن- أطأ)؛ لأهميتهما عنده، وإرادته إبرازهما؛ لأنهما يبرزان كمال التمكن منه، وتمام النصرة عليه، بعد أن كان مزهوا بنفسه، وساعده على إبرازهما الصورة المعكوسة هنا.

(١) مفتاح العلوم: صـ٢٤٧.

(٢) ينظر: المثل السائر: ٢/ ١٣، و العنزة: مثل نصف الرمح.

ومن ذلك أيضا قوله- تعالى-: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص: ١٨]، قال: يسبحن والسياق أن يقول: مسبحات؛ "لأن التسبيح قد وقع في زمن سيدنا داود- عليه السلام-، ولكن لما كان تسبيح الجبال من أعجب الأحداث، وأدلها على قدرة العزيز الرحيم عبر عنها بصيغة المضارع التي نقلت الحدث من الماضي السحيق، وأحضرته في مقام المشاهدة، وكأنه يقع الآن، وكأنك ترى هذا المشهد الجليل من مشاهد القدرة الباهرة.

قال الزمخشري- رحمه الله-: "فإن قلت: هل من فرق بين يسبحن ومسبحات؟ قلت: نعم وما اختير يسبحن على مسبحات إلا لذلك، وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئا بعد شيء، وحالا بعد حال، وكأن السامع حاضر تلك الحال يراها تسبح"(١).

"وهذا كما ترى من قدرات اللغة التي تستطيع كلمة منها بل صيغة كلمة أن تحضر مشهدا هائلا كذا، وكأن الكون والزمان، والأحداث كلها مضمرات في بطون الكلمات تفصح عنها حين تديرها يد الخبير بطبائعها"(٢)؛ مما يبرز بلاغة العكس ودوره في نقل المعاني كما أرادها المتكلم.

(١) الكشاف: ٤/ ٧٨.

(٢) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني (ص: ٢٦٥).

المبحث الخامس

الصورة المعكوسة فيما جرت به العادة

المطالع لشعرنا العربي يلحظ كثيرا من الثوابت التي درج عليها الشعراء فكثرت في أشعارهم، وشاعت على ألسنتهم، فصارت عادة موروثة عندهم، وذلك مثل حديثهم عن الليل وطوله وتمنيهم انقضاءه حينما يتحدثون في الغزل والشوق، ومثل حديثهم عن الحبائب ووصفهن بالتدلل والتمنع، ويرسمون صورة للمحب وهو يحاول ويكرر التعلق بهن، والتذلل لهن، والرغبة في الوصال معهن وهن يصددن ويعرضن، وذلك مثل قول امرئ القيس في صاحبته:

ويوماً على ظهر الكثيبِ تعذَّرت عَليّ وَآلَتْ حَلْفَة لم تَحَلَّلِ.

أفاطِمُ مهلاً بعضَ هذا التدلُّل وإن كنتِ قد أزْمعْت صرمِي فأجمِلي[1]

أفاطِمُ مهلاً بعضَ هذا التدلُّل وإن كنتِ قد أزْمعْت صرمِي فأجمِلي[2]

وكقول عنترة:

أذِلُّ لعبْلةٍ منْ فَرْطِ وجْدي وأجعلها من الدُّنيا اهتمامي

وأمْتثِلُ الأَوامرَ منْ أَبيها وقد مَلكَ الهوى مني زمامي

رضيتُ بحبّها طوْعاً وكُرْها فهلْ أحظى بها قبلَ الحمام

لَعَمْرُ أبيكَ لا أَسْلو هَواها ولو طحنتْ محبَّتها عظامي

عليْكِ أَيا عُبيْلةُ كلَّ يوْمٍ سلامٌ في سلامٍ في سلامِ[3]

---

(١) ديوان امرئ القيس: ١/ ٣٢.

(١) ديوان امرئ القيس: ١/ ٣٢.

(٣) شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي، تقديم/ مجيد طراد، صـ١٨٨، نشر/ دار الكتاب العربي- العربي- بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

ولا شك أن هذا مما يعجب الحبائب؛ حيث يظهرهن في صورة المطلوبات المرغوبات المتمنعات، وأمثلة ذلك في الشعر أكثر من أن تحصى.

لكن الشعراء في بعض الأحيان يخرجون عن هذه الثوابت، ويحطمون تلك القيود، فيصورون المحبوبة في صورة عكس التي رسمها لها الشعر العربي، فيجعلها في صورة المتشوقة إليه، المنتظرة إشارة منه لتنكبَّ عليه، وذلك كما عند امرئ القيس:

إذا قلتُ هاتِ نوِّليني تمايلتْ ... عليَّ هضيم الكشح ريا المخلخل

مهفهفةٌ بيضاءُ غير مفاضَة ... ترائبها مصْقولة كالسَّجَنْجلِ[1]

يقول أستاذنا الدكتور أبو موسى معلقا على البيت الأول: "وفي هذا البيت إشارات لطيفة...ولا أشك في أن امرأ القيس أرادها، وذلك أنه لم يسع هو نحوها ليصيب منها ما يشتهي، كما هو الشأن في صاحب الصبوة، وإنما ثبت في مكانه وأصدر لها أمرين(هاتِ نوِّليني) فأجابت وتمايلت، والصورة هنا معكوسة لأن الذي في الشعر هو أن الرجل يسعى والمرأة تتمنع، حتى وإن كانت راغبة؛ لأنها تعلم أن تمنعها أكثر إثارة له"[2].

ولعل ذلك لأن شخصية الملوك قد طغت على امرئ القيس هنا كما هي غالبة في معظم أشعاره، يكون معتدا بنفسه حتى إن الحبائب بمجرد أن يطرقهن يلهيهن عن أطفالهن الصغار، وفي مواضع قليلة كان يتبذل إليهن ويتودد لهن راجيا

(١) ديوان امرئ القيس، صـ ١١٥، طبعة: دار الكتب العلمية، ط٥، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(٢) الشعر الجاهلي- دراسة في منازع الشعراء، د/ محمد أبو موسى صـ٧٠، مكتبة وهبة.

وصالهن كما هو الشأن عند معظم الشعراء، فكان" دائما هو الآمر حتى في لحظات ذروة تمتعه بالصاحبة، يقول لها (هاتِ نوِّليني) فتنقاد لأمره وتتمايل عليه"[١].

فكان العكس هنا مناسبا لشخصية امرئ القيس الملوكية المعتدة بنفسها الواثقة بمكانتها، وهو ما لم نره عند معظم الشعراء عندما ينظمون في الغزل.

ومن هذا النوع أيضا قول المتنبي من قصيدة يمدح بها سيف الدولة:

وَأَحْلَى الهَوَى مَا شَكَّ فِي الوَصْلِ ربُهُ وَفِي الهَجْرِ فَهُوَ الدَّهْرُ يَرْجُو وَيَتَّقِي[٢]

ادَّعى أبو الطيب أن أحلى الهوى ما لازمه الشك دائما، فيعيش صاحبه في حالة شك وترقب مستمر للوصل والهجر، وهذه عنده ألذ أحوال الهوى وأطيبها، وليست هذه صفة محمودة عند الشعراء، ولم يقل بها أحد منهم؛ وإنما حلاوة الهوى أن يكون سالمًا من الفراق والهجر، وقد وصفت ذلك الشعراء، قال الشاعر:

إِذ النَّاسُ نَاسٌ والأحبةُ جِيرةٌ جَميعٌ وإِذْ كُلُّ الزَّمَانِ رَبِيعُ[٣]

وقال كثيِّر:

سَقَى الله أيامًا لنَا لسْن رجَّعًا إلينَا وعصْرُ الحَاجِبِيةِ مِنْ عَصْرِ

لَيَالِي أَجْررْت البطالة مقْودِي تَمُرُّ اللّيَالِي والشُّهورُ ولا أدْرِي

وقال قيس بن الملوَّح أيضًا:

(١) السابق:٥٨، ٥٩.

(٢) اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي (ص: ٧٨٠) لأبي العلاء المعري، ت/ محمد سعيد المولوي، نشر/ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط١، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م. والأبيات من قصيدة مطلعها:

لِعَيْنَيْكِ مَا يَلْقَى الفُؤَادُ وَمَا لَقَى وَللحُبِّ مَا لَمْ تَبْقَ مِنِّي وَمَا بَقِي.

(٣) اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي (ص: ٧٨١).

أَلَا يـــا حبَّـــذا نفحـــات نجـــدٍ وريـــا رَوْضِـــه بعْـــد القَطَـــارِ
وأهلـــك إذ يَحِـــل الحـــي نجـــدًا وأنْـــتَ علَـــى زَمَانـــكَ غَيـــرُ زَارِ
شُـــهُورٌ يَنْقَضِـــينَ وَمَـــا شَـــعُرْنَا بأَنْصَـــافٍ لَهُـــنَّ وَلَا سِـــرَارِ[1]

فعكس المتنبي المعنى المتداول لدى الشعراء؛ ولعل ذلك لأن حالته في هذه القصيدة ومزاجه فيها متقلب، فالبيت الذي يسبق هذا البيت مباشرة يقول فيه:

وبـــين الرِّضَـــى وَالسُّـــخْطِ وَالقُـــرْبِ وَالنَـوَى مَجَـالٌ لِـدَمْعِ المُقْلَـةِ المُتَرَقْـرِقِ

يقول: لا أزال أبكي في حال رضي الحبيب، خوفاً من سخطه، وفي حال سخطه، لحصوله، وفي حال القرب، خوفا من النوى، وفي حال النوى لحصولها، فبين كل شيء من هذه الأحوال مجال لدمع السائل[2].

فهو يصف ما أحدثه به هوى المحبوبة، حيث أصبحت حاله متقلبة بين السخط والرضى والقرب والبعد فأصبح دمعه رقراقا لا يجف.

وكأن هذا البيت تعليل للبيت الأول مطلع القصيدة:

لِعَيْنَيْـكِ مَـا يَلْقَـى الفُـؤَادُ وَمَـا لَقَـى وَللحُـبِّ مَـا لَـمْ تَبْـقَ مِنِّـي وَمَـا بَقِـي

الذي يصف ما حدث لقلبه وجسمه وتأكيد له؛ فهو يبكي في كل حال، رضىَ عنه المحبوب أو سخط عليه، قرُب منه أو بعُد، فما في الدهر أشقى من محب.

ومثله قول الآخر.

فَيَبْكِـــي إِنْ نَـــأَوْا شَـــوْقًا إِلَـــيْهِمْ وَيَبْكِـــي إِنْ دَنَـــوْا خَـــوْفَ الْفِـــرَاقِ

(١) ديوان قيس بن الملوح، صـ٧٦، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
(٢) ينظر: شرح ديوان المتنبي للتنوخي: صـ٢٨٧.

ومما جرت به عادة الشعراء أيضا عند حديثهم عن محبوباتهم، وإبراز تدللهن عليهم، وتمنُّعهن عنهم أنهم يذكرون تمادي المحبوبة في التمنع والإعراض، وكلما زاد تمنعها كلما زاد الشاعر تعلقا بها، وتمسكا بحبها، هذا ما هو موجود عند معظم الشعراء لأنه مما يعجب الحبائب ويستميلهن، فلا يبدي الشاعر تجلدا في وجه المحبوبة، واستعدادا للاستغناء عنها إن هي ظلت على إعراضها، فالمعاملة بالمثل مفقودة بين المحبين، وفي أحيان قليلة يخالف الشعراء هذه العادة ويظهرون التهديد والتحذير للمحبوبة بأنه سيتخذ خلة غيرها، أو سيتوب ويبتعد عن حبها إن هي لم تستجب له وتنصفه وتثيبه، وذلك كما عند ابن الدمينة في بائيته المشهورة(١):

أُميمَ لقلبي من هَوَاكِ صبابةٌ ... وَأَنت لَهَا لو تعلمين طَبِيبُ
فَإِن خفت أَلا تُحكمي مِرّة الْهوى ... فردي فُؤَادِي والمراد قريبُ
أكون أَخا ذِي الصرم أما لخلةٍ ... سواك وَإِمَّا أرعوي فأتوبُ
تبعتك عاما ثم عَامَين بعدَه ... كمَا تَبِعَ المستضعفين جَنِيبُ
فأبلستِ إبلاس الدنيء ومَا عَدَت ... لَكِ النَّفْسُ حَاجَاتٍ وَهنَّ قريبُ
رَجَاة نوَال من أمَيمةَ إنَّها ... إذا وعَدتْنا نائلاً لكذُوبُ

فهو يتهددها ويتوعدها أن يتبدل بها غيرها، ويرميها بالكذب، على غير عادة الشعراء المحبين، ولا شك أن مثل هذا لا تُعجب به الحبائب؛ فيكون هذا

(١) ديوان ابن الدمينة، صنعه/ أبو العباس ثعلب ومحمد بن حبيب، ت/ أحمد راتب النفاخ صـ ١١٦/ ١١٧، نشر/ مكتبة دار العروبة، طبعة المدني بمصر، والأبيات من قصيدة مطلعها: أمِنْك– أميم – الدَّار غَيرهَا البلى *** وهيف بجولان التُّراب لعوب.

التهديد سببا في انصرافهن عن الحبيب، وتركه يعاني آلام الفراق غير مأسوف عليه.

ولعل تهديد ابن الدمينة هنا قد جاء بعد أن يئس من وصال محبوبته، وتيقنه بأنها لم يعد منها إسعاف، فقد استعطفها كثيرا في هذه القصيدة في الأبيات السابقة على هذه الأبيات، لكنه لم يلمس منها أي استجابة، فلم يعد أمامه إلا أن يهددها ويحذرها لعلها تفيق وترجع، فآخر الدواء الكيّ كما يقولون.

فالعكس هنا متناسب مع حالة اليأس التي يعيشها الشاعر بعد أن سلك كل السبل لاستمالة المحبوبة، ولم تفلح معها أي طريقة لإعادة الوصال مرة أخرى.

ولهذا النوع صور كثيرة تظهر عند التفتيش في اللسان الفصيح، وما ذكرته إنما هو نماذج تفتح الطريق للبحث عن مثل هذه الصور المعجبة التي تعتمد – كما ذكرت في المقدمة– على بلاغة المتكلم، وفطنة المخاطب، فتخاطب ذوقه الرفيع وحسه المرهف وعقله الواعي فتجعله يستشعر جمال هذه الأساليب ويتأثر بها.

الخاتمة

من أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة ما يأتي:

١- وردت الصورة المعكوسة في كلام الله - تعالى- وكلام رسوله- ﷺ- وكانت مناسبة أشد التناسب لمقام الكلام في كل منها، كما وردت في الكلام العربي الفصيح كثيرا وكانت ملائمة للمقام في معظم مواقع ورودها.

٢- جاءت أكثر مواطن ورود الصورة المعكوسة في التشبيه المقلوب؛ ولعل ذلك لأن التشبيه بطبيعته يرد في الكلام أكثر من غيره، وفي صور متعددة، كما أن فيه مرونة تسهل نقل الطرفين تناسبا مع غرض المتكلم.

٣- جاءت الصورة المعكوسة في الاستعارة بكثرة في القرآن الكريم، وكان أكثر مواقعها في سياق التهكم بالكفار والمنافقين.

٤- وردت الصورة المعكوسة في بعض علاقات المجاز المرسل والعقلي وكانت غاية في الروعة والجمال والمبالغة.

٥- لم أعثر على أمثلة للصورة المعكوسة عن طريق الكناية؛ ولعل ذلك لأن الكناية يمكن فيها إرادة المعنى الأصلي بجانب المعنى الكنائي فالمجال فيها أوسع؛ مما يضيق الخناق على المتكلم أن يعكس صوره حيث يتاح له فيها أكثر من طريق.

٦- لم ترد الصورة المعكوسة في علم البديع اللهم إلا في حديث البلاغيين عن القلب، وقيدوه بالحروف بحيث إذا قلبت الكلام وابتدأت من حرفه الأخير إلى الحرف الأول كان الحاصل هو هذا الكلام نفسه، وأيضا عند حديثهم عن جناس

القلب وهو متعلق بقلب الحروف أيضا، وليس فيه كبير فائدة؛ لذلك لم أتعرض له في هذه الدراسة.

٧- اعتمدت الصور المعكوسة على بلاغة المتكلم، وذكاء المخاطب ووعيه، فأشركته مع المتكلم في الوصول إلى ما يريد، وكانت غاية في الفصاحة والبلاغة.

٨- معظم المواضع التي وردت فيها الصورة المعكوسة كانت غاية في الروعة والجمال والمبالغة واستحسنها النقاد، وندر منها مالم يستجده النقاد وأخذوا يبحثون له عن علل لقبوله.

٩- ثبت من خلال الدراسة أن اللسان العربي قادر على أن يخرج عن المألوف، وأن يفكر خارج الصندوق، وأن يسير في الاتجاه المعاكس، وأن يبحر ضد التيار ليستخرج الدرر واللآلئ التي تمتلئ بها لغتنا العظيمة النابضة بالحياة القادرة على التلون والتشكل والمخالفة لتلائم المقامات على اختلافها، وتعبر عما بداخل المتكلم؛ وذلك بعض أسرار جمالها.

والله من وراء القصد، وهو حسبي ونعم الوكيل.

قائمة المصادر والمراجع

١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب، ط١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٢) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت/ عبد الحميد هنداوي، نشر/ دار الكتب العلمية– بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٣) الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم للعصام، ت/ د/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٤) إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش، نشر/ دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، (دار اليمامة – دمشق – بيروت) ، (دار ابن كثير – دمشق – بيروت)، ط٤ ، ١٤١٥ هـ.

٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، ت/ محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٦) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، ت/ د/ محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل، بيروت، ط٣.

٧) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان، ت/ صدقي محمد جميل، نشلا/ دار الفكر – بيروت، ط ١٤٢٠ هـ.

٨) البدر التمام شرح بلوغ المرام للمغربي، ت/ علي بن عبدالله الزبن، نشر/ دار هجر،ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٩) البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ، ت/ د/ أحمد أحمد بدوي، د/ حامد عبد المجيد، مراجعة: الأستاذ إبراهيم مصطفى، نشر/ الجمهورية العربية المتحدة – وزارة الثقافة والإرشاد القومي – الإقليم الجنوبي – الإدارة العامة للثقافة.

١٠) البرهان في علوم القرآن للزركشي، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ط١، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م.
١١) تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف، نشر/ دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٦٠م.
١٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر- تونس، ١٩٨٤هـ).
١٣) تفسير الراغب الأصفهاني، ت/ د. محمد عبد العزيز بسيوني، نشر: كلية الآداب - جامعة طنطا، ط١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م
١٤) تفسير الشعراوي، نشر/ مطابع أخبار اليوم.
١٥) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، ت/ أحمد محمد شاكر، نشر/ مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
١٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ت/ أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر/ دار الكتب المصرية - القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.
١٧) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشمي، ت/ د/ يوسف الصميلي، نشر/ المكتبة العصرية- بيروت.
١٨) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني، ت/ عبد الحميد هنداوي، نشر/ المكتبة العصرية- بيروت.
١٩) حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي، لشهاب الدين الخفاجي المصري، نشر/ دار صادر - بيروت .
٢٠) الخصائص لابن جني، نشر/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤.
٢١) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط٧.

٢٢) ديوان ابن الدمينة، صنعه/ أبو العباس ثعلب ومحمد بن حبيب، ت/ أحمد راتب النفاخ، نشر/ مكتبة دار العروبة، طبعة المدني بمصر
٢٣) ديوان امرئ القيس، ت/ عبد الرحمن المصطاوي، نشر/ دار المعرفة- بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
٢٤) ديوان بشار بن برد، ت/ محمد الطاهر بن عاشور، وزارة الثقافة الجزائرية ٢٠٠٧م.
٢٥) ديوان رؤبة بن العجاج، دار ابن قتيبة، الكويت.
٢٦) ديوان القطامي، ت/ د/ إبراهيم السامرائي، أحمد مطلوب، نشر/ دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦٠م.
٢٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي، ت/ علي عبد الباري عطية، نشر/ دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ.
٢٨) زهرة التفاسير للشيخ محمد أبو زهرة، نشر/ دار الفكر العربي.
٢٩) شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي، تقديم/ مجيد طراد، نشر/ دار الكتاب العربي- بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
٣٠) شرح المعلقات السبع للزوزني، نشر/ دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
٣١) الشعر الجاهلي- دراسة في منازع الشعراء، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة.
٣٢) شعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي، جمع وتنسيق/ مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م
٣٣) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوي، نشر/ المكتبة العنصرية – بيروت، ط١، ١٤٢٣ هـ.

٣٤) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح للسبكي، ت/د/ عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
٣٥) علم البيان، عبد العزيز عتيق، نشر/ دار النهضة العربية، بيروت– لبنان، عام ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٢م.
٣٦) فتح القدير للشوكاني، نشر/ دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط١ – ١٤١٤ هـ.
٣٧) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) ت/ إياد محمد الغوج، د. جميل بني عطا، نشر/ جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط١، ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م.
٣٨) القلب البلاغي، د/ مصطفى السيد جبر، نشر/ دار المصري للطباعة، الهرم.
٣٩) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري (١/ ٣٢١)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.
٤٠) اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي لأبي العلاء المعري، ت/ محمد سعيد المولوي، نشر/ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط١، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.
٤١) لسان العرب لابن منظور، نشر/ دار صادر – بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
٤٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ت/ محيي الدين عبد الحميد (٢/ ١٢)، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ.
٤٣) محاسن التأويل للقاسمي، ت/ محمد باسل عيون السود، نشر/ دار الكتب العلمية، بيروت،ط،١ ١٤١٨ هـ.
٤٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، ت/ عبد السلام عبد الشافي محمد، نشر/ دار الكتب العلمية – بيروت، ط١ – ١٤٢٢ هـ.

٤٥) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، ت/ عبد الحميد هنداوي، نشر/ دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٤٦) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للهروي، نشر/ دار الفكر- بيروت- لبنان، ط١، ١٤٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٤٧) مسند الإمام أحمد بن حنبل/ ت شاكر، نشر/ دار الحديث- القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٤٨) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص لأبي الفتح العباسي، ت/ محيي الدين عبد الحميد، نشر/ عالم الكتب- بيروت.

٤٩) النظم البلاغي بين النظرية والتطبيق، د/ حسن إسماعيل الجناجي، نشر/ دار الطباعة المحمدية، القاهرة، مصر، ط١ ،١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.